

حقائق علم النفس والاجتماع

جمعه وحققه فضيلة المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

المنهاج الدراسي


حقائق علم النفس
والاجتماع

حقائق علم النفس والاجتماع

لفضيلة العلاَّمة الإنساني الكبير
محمّد أمين شيخو
(قدَّس الله سره)

The Great Humane Scholar
Mohammad Amin Sheikho
His soul has been sanctified by Al'lah

جمعه وحقَّقه المربِّي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

Checked and Introduced by:
Scholar Professor **Abdul-Kadir John AIias Al-Dayrani**

عنوان دار نور البشير
على شبكة الانترنيت:
www.amin-sheikho.com
www.sheikho-books.com
Email: info@sheikho-books.com

تطلب كتب فضيلة العلاَّمة الإنساني الكبير
محمَّد أمين شيخو
من: دار نور البشير
سوريا ـ دمشق ـ ص.ب:(١٠٦٧)
هاتف:٦٣٢٩٧١٧ (٠٠٩٦٣١١)



فَضِيلَةُ العَلَّامَةِ الإِنسَانِيِّ الكَبِيرِ
محمد أمين شيخو
قدّس الله سرّه

حقائق علم النفسِ والاجتماع

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني



مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه الطيبين. أما بعد:

لكل شيء في هذا الكون حقيقة، وهذه الحقيقة لا تصل إليها إلا من خلال التفكير الجدي والمتواصل ... وأهم شيء لك كمخلوق هو أن تصل للخالق تعالى ... وأيسر طريق لك هو رسوله الكريم ﷺ وكلامه المنزل عليه (القرآن الكريم)، ففي القرآن الكريم الحقيقة الكاملة كلها، وبدراسة وتطبيق كلام الله تعالى يُصبح الإنسان كاملاً مكللاً بالنور الإلٓهي... يغدو الإنسان بصيراً.. يعلم لماذا أتى الله به إلى هذه الدنيا، والحكمة الكبيرة وراء خلق هذا الكون الواسع، يعلم أن الدنيا مدرسة مُعدَّة للفوز والسمّو، فيسعى ويجتهد فيها، يُضحي براحته وماله وجاهه لعلمه بما في ذلك عند الله من الأجر والثواب، ترى أعماله مع كل الخلق إنسانية خيِّرة، وترى كلامه لا يدل إلا على الفضيلة والكمال.

سنتناول معكم في هذا الكتاب حقائق علم النفس والقوانين الخاضعة لها، وكل ما يتصل ويتعلق بها، وسنناقش بدروسنا ضمن هذا السفر بحوثاً كثر الجدل فيها وحولها... فنبين لكم الحقائق ونضع بين أيديكم القوانين الصحيحة اعتماداً على علوم وبيان أعظم عالم في هذا العصر الحاضر العتيد ... إنه العلاَّمة الإنساني الكبير محمد أمين شيخو قدّس الله سره ذو العلم اللدنِّي الإشراقي ونفعنا الله وإياكم بعلمه الشريف وفهمه العالي الرفيع لكلماته تعالى في القرآن الكريم.

تمهيد:

يتضح للمفكر الباحث أن القرآن الكريم أولى النفس أهمية كبرى فجعل الحديث عنها، أو بالأصح الحديث معها ذاتها، فبيَّن سبب وجودها وسر كنهها، وسبل هدايتها وسعادتها، وإقالة العثار من طريقها، وتسليكها وتطهيرها لتتحلى بالفضائل والمكرمات الإنسانية والصفات النبيلة، وكذلك تحذيرها من طرق شقائها وتعاستها، وبالتالي النهاية المؤلمة التي يمكن أن تصل إليها إن هي ظلت متعنتة ورافضة للنصح وغير عابئة بسوء المصير. والقرآن الكريم خطاب مستمر من الله إليها... عن كل ما يحيط بها ويهمها ويشغل ساحتها، فالقرآن بمضمونه العظيم هو قانون الله ونظامه الموجّه للنفس الإنسانية من أجل سمّوها ورفعتها.

لقد انشغل كثير من الباحثين والفلاسفة على مرِّ العصور وكرِّها من مختلف الطوائف والديانات بالحديث عن النفس، ومحاولة إيجاد تعريف ومصطلح لتوصيفها، وتحديد وظائفها وسبب خلقها، وانعكاس أعمالها عليها وعلى الكون المحيط بها.

ولسنا هنا لتصحيح تلك الأقوال والدراسات وتصويبها، فذاك بحث يطول، ومردود فوائد مثل هذه الحوارات والنقاشات بالنسبة للطلاب ليست بذي أهمية، بل يمكن أن تكون أضرار مثل تلك البحوث أكثر بكثير من المنافع المرجوة، فهذا الجدال عن شيء لا يعلمه الطالب يشتت ذهنه، ويقلل من تركيزه ويوقعه بالضياع.

إنما الأهمية في هذا المنهاج تكمن في وضع القواعد الأساسية لعلم النفس وتوضيح حقائقها وتعريفها وسبب خلقها.. من خلال أدلة القرآن الكريم وبعض الأمثلة العملية والقصص الواقعية... وبذلك تبنى قاعدة صحيحة وراسخة لدى الطالب، يستطيع

من خلالها وبكل بساطة أن يناقش ويحاور هو بذاته كل بحث يأتيه، فيرد ما كان خطأً ويقبل ما هو صحيح .

لذلك سنبدأ دروسنا بالحديث عن النفس، عن أصلها ... منشئها ... حكمة خلقها ووجودها، إلى كل ما يتعلق بها... وما يتعلق بالمجتمع الإنساني الكبير الذي تحيا به النفس، وأيضاً إلى ذكر بعض القوانين والأنظمة التي سنَّها الله تعالى لهذه النفس حتى تعيش حياة رغيدة وسعيدة.

نأمل منكم الجد والاجتهاد ونتمنى لكم التوفيق والنجاح...

تقديم

الأستاذ المربّي

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

الفصل الأول

١) ما هـي النفس.... وأين مركز وجـودها.... وما هـي وظيفتها؟.

٢) سبب الخروج إلى الدنيا.

٣) أثر حرية الاختيار في قيمة الأعمال.

٤) الملائكة الكرام وباقي الكائنات.

٥) بحث القضاء والقدر.

٦) الفرق بين النفس والروح.

٧) الفرق بين العقل والفكر وعلاقتهما بالجسم.



الدرس الأول:

طبيعة النفس البشرية

ما هي النفس، وأين مركز وجودها، وما هي وظيفتها؟.

يتألف الإنسان من نفس وروح وجسم، ولمعرفة كل منها على حدة، نبدأ دروسنا ببحوث النفس وذلك لأهميتها الكبرى، إذ أنها هي العنصر الأساسي لسبب إيجاد وخلق هذه الحياة الدنيا.

فما هي النفس؟.

تعريف النفس الإنسانية: **النفس:** هي ذات الإنسان المعنوية الشاعرة، وهي **نور إلٓهي** مركزها في الصدر وأشعتها سارية بواسطة الأعصاب في سائر أنحاء الجسم، وهذه النفس المسجونة في الجسم إنما تتعرّف على ما يحيط بها من الأشياء بواسطة الحواس، فمن طريق العين تُبصر، وعن طريق الأذن تسمع وبالأنف تشمّ، وبواسطة الجلد تحس وتلمس، وباللسان تذوق طعوم الأشياء، كما تعبّر به عمّا يجول فيها من الخواطر والأفكار.

وبشيء من التفصيل نقول:

إذا وقف أحدنا مثلاً أمام شاطئ البحر فلا شك أن رؤيته للبحر تجعله يخشع أمام هذا المنظر ويستعظمه، وهذا الخشوع والاستعظام إنما هو خشوع النفس واستعظامها.

وإذا وقع نظرنا على شخص عزيز على قلوبنا جُرحت يده جرحاً بليغاً، وجعل الدم يتقاطر منها، فلا بد أننا نحزن لهذا المشهد ونتألم على صاحبه، فهذا الحزن والألم الذي نجده إنما هو حزن النفس وألمها. وإذا كان أحد أقاربنا الذين نحبُّهم

مسافراً سفراً بعيداً وسمعنا بعودته سالماً فحينئذٍ نسرُّ ونفرح، وما ذاك إلاّ فرح النفس وسرورها، وهكذا فالنفس هي العنصر الأساسي في الإنسان فهي التي تستعظم وتخشع وهي التي تحزن وتتكدّر، وتسرُّ وتفرح، وترضى وتغضب وتتلذذ وتتألم، وعليها المعوّل.

والنفس هي المخاطبة دوماً في القرآن الكريم كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾[1] ،والنفس هي المكلَّفة بالسير في طريق الحق ولها في ذلك مطلق الحرية والاختيار. قال تعالى:

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾[2]. وهي التي تذوق الموت ذوقاً حسب حالها عند مفارقتها للجسد وخروجها من الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾[3] . والنفس هي التي تتألم وتتحسر بسبب خسارتها يوم القيامة، وحينها تُعالج وتُداوى من ربها الرحمن.

قال تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ [4]

وهي التي تتنعّم في الجنان فلا تبغي عنها حولاً كما ذكر تعالى: ﴿.. وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ..﴾[5].

وسمِّيت هذه الذات الشاعرة **(بالنفس)** وذلك بسبب قيمتها النفيسة والثمينة عند الله تعالى.

---

(1) سورة الفجر: الآية (٢٧).
(2) سورة الشمس: الآية (٧ ـ ١٠).
(3) سورة العنكبوت: الآية (٥٧).
(4) سورة الزمر: الآية (٥٦).
(5) سورة فصلت: الآية (٣١).

فما هو أصل النفس، ولماذا خلقها الله تعالى وأوجد لها هذا الكون العظيم؟.

أصل النفس:

الله تعالى وبدء الخلق كان الله تعالى ولم يكن معه شيء، فلا أرض ولا سماء، ولا شمس ولا قمر، ولا هواء ولا فضاء، ولا ليل ولا نهار، ولا زمان ولا مكان، ولا إنسان ولا حيوان، ولا مَلَك ولا جان، فهو تعالى الأول، أول بلا بداية، فمهما قلت أول فهو أول وأول وليس لوجوده تعالى أول ولا شيء قبله.. وهو تعالى عظيم وكبير فمهما قلت عظيم فهو أعظم وأعظم ومهما قلت كبير فهو أكبر وأكبر، لا حدَّ لعظمته ولا انتهاء، آخر بلا نهاية ولا شيء بعده، قال تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣** ﴾[1].

وقد أراد تعالى وهو معدن الجود والإحسان، والرحمة والفضل والحنان، والعظمة والجمال والجلال، وغير ذلك من الأسماء الحُسنى الدالَّة على الكمال، أراد تعالى أن يخلق المخلوقات ليُذيقها من رحمته وليغمرها بفيض من برِّه وإحسانه، وإن شئت فقل أراد تعالى أن يخلق المخلوقات ليعرِّفها بذاته العلية كيما تسبح متنعِّمةً في شهود جماله وجلاله وتتمتع مستغرقةً في رؤية كماله.

وفي الحديث القُدسي الشريف: **«كنتُ كَنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق وعرَّفتهم بي فبي عَرفوني»**[2].

---

[1] سورة الحديد: الآية (٣).

[2] قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦** ﴾ الذاريات (٥٦). وقد وافق على صحة الحديث الشيخ علي ملا القاري مستنداً إلى تأويل ابن عباس لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦** ﴾: أي ليعرفوني. وقد اعتمده الصوفية وابن عربي وبنوا عليه أُصولاً.

وتفصيلاً لمعنى هذا الحديث الشريف نقول:

- **الكنز:** هو الشيء الثمين الجميل والمراد به في الحديث الشريف: ذلك الجمال الإلَهي العظيم والكمال العالي الرفيع.
- **المخفي:** الذي لا يعرفه أحد.
- **فأحببت أن أُعرف:** تُشير إلى كرمه تعالى وكبير فضله، لأن من شأن الكريم أن يظهر كرمه ويُفيض برَّه وإحسانه.
- **فخلقت الخلق:** أي ليتنعَّموا بشهود ذلك الجمال الإلَهي وليستغرقوا في رؤية ذلك الكمال الذي لا يتناهى، وهي تشير إلى إيجاده تعالى المخلوقات في ذلك العالم الذي يسمُّونه بعالم الأزل.
- **وعرَّفتهم بي:** أي: أشهدتهم عظمتي وفضلي عليهم في خلقهم.
- **فبي عرفوني:** أي عن طريق رؤيتهم لأنفسهم توصَّلوا لمعرفتي فتمتعوا برؤية ذلك الكنز العالي؛ إذ شاهدوا طرفاً من جمالي وكمالي.

وقد كانت المخلوقات أول ما خلقها الله تعالى في ذلك العالم **(عالم الأزل)** نفوساً مجردةً من الصور والأجساد، فالإنسان والحيوان والسماء والأرض، والمَلَك والجآنُّ، وإن شئت فقل: كل المخلوقات كانت يومئذٍ من نوع واحد وذات صفة واحدة لا فرق ولا تفاوت بينها في شيء، وقد تمتَّعت هذه الأنفس كلها يومئذٍ برؤية ذلك الكنز وشغفت حبَّاً وهياماً بمشاهدة ذلك الجمال الإلَهي العظيم.



الأسئلة:

١) عرف النفس ولماذا سميت بهذا الاسم؟.

٢) ما الخدمة العملية التي تقدمها الحواس للنفس؟.

٣) لماذا يوجه الله تعالى خطابه بالقرآن الكريم للنفس؟.

٤) لماذا سمَّى القرآن الكريم هذه الذات المعنوية (بالنفس) فما مدلول تلك التسمية؟.

٥) ما المراد من كلمة (الكنز) الواردة في الحديث القدسي الشريف؟.

❖❖❖

الدرس الثاني:

سبب الخروج إلى الدنيا

رأينا في الدرس السابق كيف كانت المخلوقات أول ما خلقها الله تعالى في ذلك العالم **(عالم الأزل)** نفوساً مجردةً من الصور والأجساد، وعلمنا أن الإنسان والحيوان والسماء والأرض، والمَلَك والجان و كل المخلوقات كانت يومئذٍ من نوع واحد وذات صفة واحدة لا فرق ولا تفاوت بينها في شيء، وقد تمتَّعت هذه الأنفس كلها يومئذٍ برؤية ذلك الكنز وشغفت حبَّاً وهياماً بمشاهدة ذلك الجمال الإلَهي العظيم. فما هو سبب خروجنا إلى الحياة الدنيا؟.

العدل الإلَهي وتساوي الخلق في عالم الأزل

سبب الخروج إلى الدنيا: إنَّ وقوف هذه المخلوقات عند درجة واحدة من الرؤية للجمال الإلَهي الذي شهدته تجعلها فيما بعد تَمَلُّ الحال الذي هي فيه مهما كان عالياً، ولا بدَّ لها حتى يكون النعيم والفضل تامّاً من أن تترقَّى في الرؤية من حال إلى حال أعلى بصورة لا تتناهى، وتقريباً لذلك من الأذهان نقول:

"لو أنَّ رجلاً يجلس في بستان جميل لم ترَ مثله العين وظلَّ مقيماً فيه أمداً طويلاً فلا شك أنه يمَلّه ولا يعود يرى بعد حين ما فيه من متعة وجمال ولا بدَّ له حتى يدوم له النعيم من أن ينتقل إلى بستان آخر يكون أجمل مما هو فيه".

وحيث أنَّ المخلوق لا يستطيع أن يترقَّى في رؤية الجمال الإلٓهي من حال إلى حال أعلى إلاَّ إذا كانت له أعمال طيبة تجعله واثقاً من رضاء خالقه عنه وتكون له بمثابة مدارج يستطيع أن يتقرب بها إلى الله تعالى زلفى، لذلك عرض تعالى على هذه الأنفس جميعاً الخروج من ذلك العالم الذي لا عمل لها فيه إلى دار تكون لها فيها أعمال عالية تساعدها على الإقبال على خالقها، والسعي إلى ذلك الكنز العالي لِتَعُبّ من بحر الجمال والكمال عبّاً كثيراً متواصلاً لا متناهياً.

إذاً ... ما الذي تجنيه النفس من خير عظيم وكبير إذا هي عملت الأعمال الصالحة؟.

❖❖❖

أثر العمل في تسامي النفس وقربها من خالقها

لبيان أثر العمل في تسامي النفس وقربها من خالقها نضرب على ذلك مثلاً فنقول:

لنتصور قائداً خاض بجنوده معركةً من المعارك، فيا ترى هل كل هؤلاء الجنود يعودون من المعركة في حال نفسي واحد؟! لا شك أنَّهم سيكونون على درجات... فالجندي الأكبر تضحيةً وإقداماً والأحسن عملاً يرجع وهو أقرب من قائده نفساً وأدناهم لديه منزلةً وأوفرهم بالسعادة النفسية حظاً.

وكذلك ينطبق هذا المثل على الأبناء تجاه والدهم، والطلاب تجاه معلِّمهم، والمريدين مع مرشدهم، والعباد مع خالقهم، إذ من قوانين النفس الثابتة أنَّها لا تستطيع أن تقبل على آخر إقبالاً معنوياً ما لم يكن لها عمل صالح تقدِّمه بين يديها فتستند عليه في إقبالها. وكلَّما كانت تضحياتها أكبر وعملها أعلى وأرفع كان إقبالها أعظم.

إنَّ هذه الناحية النفسية ونعني بها الثقة التي يولِّدها العمل الصالح في نفس صاحبها يجعلها تسير قُدماً وتعرج متسامية إلى خالقها فتسعد بالقرب منه، وتنعم بالإقبال عليه تعالى نعيماً متناسباً مع عملها، هذه الناحية المهمة وإن شئت فقل هذه الثقة التي هي أساس القرب وسر السعادة، هي التي جعلت من هذه الدار الدنيا دار العمل ممراً وطريقاً للدار الآخرة، حيث الجنَّات والنَّهَر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

بعد أن بيَّنا قيمة العمل وكونه أساساً للسعادة والنعيم وسبباً لرقي النفس وكمالها... لا بدَّ لنا من تبيان نقطة ثانية مهمة جداً، وهي الشهوة المركونة في النفس الإنسانية.

فلماذا وضع الله تعالى فينا تلك الشهوة؟.

أثر الشهوة في توليد الأعمال وإعطائها قيمها

إذا كانت الأعمال الصالحة هي التي تقرِّب الإنسان من خالقه وتجعله يشعر برضاء الله عنه، فلا بد له من دافع ومحرك يجعله ينطلق إلى تلك الأعمال، وبدون الشهوة لا ينطلق الإنسان للعمل ولا يندفع إليه.

الشهوة هي التي تجعل المخلوق يتقدم إلى العمل راغباً ويسعى إليه مسروراً، ولولا هذه الشهوة لما كان للمخلوق رغبةٌ في السعي إلى أي عمل من الأعمال... ولظلَّ خامداً ساكناً لا يجد ذوقاً ولا لذةً، ولا يعرف للنعيم طعماً.

إذاً الشهوة هي الدافع والمحرِّك وبها يكون الذوق والنعيم، وإلى جانب هذا كلّه، الشهوة هي التي تُضفي على العمل قيمته وبدونها لا يكون للعمل في نظر صاحبه شأن ولا تكون له قيمة... وكلَّما كان الشيء مُحبَّباً للنفس ومرغوباً لديها كانت التضحية به

أكبر قيمةً وأعظم في النفس تأثيراً، فلو أنَّ الإنسان كان لا يرغب بالمال ولا يشتهيه فعندئذٍ لا يكون للصدقة في نظره معنى ولا يجد في إنفاقه وصدقته رُقيّاً نفسيّاً ولا إقبالاً، وكذلك الأمر في غضِّ البصر والتعفف عن المحرَّمات، فلو أنَّ النفس كانت لا تميل إلى النساء لما كان للعفة وغض البصر معنىً ولما وجد المؤمن المتعفف تلك المعاني السامية التي يجدها في نفسه بسبب عفته وطهارته.

وهكذا فالشهوات تُعطي الأعمال الطيبة قِيَماً متناسبة معها، فكلَّما كانت الشهوة التي يُضحِّي بها محببة إلى النفس كان العمل الناشئ عنها في نظر صاحبه عظيماً وكان رُقي النفس وتساميها بهذه النسبة كبيراً أيضاً.

قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ..**﴾[1].

لولا الشهوة لما سار الكون، هذه الشهوات الدنيوية فيها زينة. بهذا التزيين ينتظم سير الحياة، ليعرف كل واحد بدايته ونهايته. هذه الزينة إن تركتها لله تولَّدت ثقة بنفسك أن الله راض عنك فأقبلت عليه. قال تعالى:

﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..** ﴾: كله ستتركه غداً. فلماذا جعل تعالى هذه الزينة للإنسان أليغتر بها؟.﴿.. **وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾** ﴾[2].

اجعل كل ما سبق ابتغاء مرضاة الله ليعود عليك الخير من الله تعالى، من يُقْبل على الله يُحسن الرجوع إلى هذه الشهوات والاستفادة منها. سترجع إليه من وجه طيّب إن صار مؤمناً، المؤمن عمله عالٍ وعظيم في الدنيا ويسعد بها أكثر.

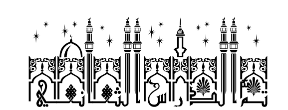
---

[1] سورة آل عمران: الآية(١٤).

[2] سورة آل عمران: الآية(١٤).

إن رجعت عنها لله لوجدت لذةً وفرحاً وزينةً خيراً منها، لأن هذه الشهوات الدنيوية فيها زينة. هذه الزينة إن تركتها لله تولدت ثقة بنفسك أن الله راضٍ عنك فأقبلت عليه. إن رجعت عن هذه الشهوات إلى الله، تأخذ هذه الأشياء من وجه شريف وتكسب رضاء الله. فبالحقيقة، المؤمن بهذه الزينة يدخل الجنة، وإن لم يؤمن حقّاً يدخل النار بها، إذ بالأولاد حين يربيهم المؤمن تربية عالية بهم يدخل الجنة، والقناطير المقنطرة: بالمال يفعل الخير فينال الجنان، أما الخيل فإنه يربيها ويجاهد عليها، أيضاً يدخل بها الجنة، والأنعام والحرث كلها تكون لدى المؤمن سبيلاً للجنة. أما من لم يؤمن، فأولاده وبال عليه، وماله يسير به إلى المهلكات، وكذلك النساء. الدنيا مطيّة للآخرة، المؤمن يستعمل الأشياء كلها لرضاء الله، فيكسب بها الآخرة، فالإيمان أصل.

إن آمنت سعدت، إن آمنت فعلت الخير والإحسان فصار لك من عملك وسيلة للإقبال على ربك. هذا يشعر به المؤمن، إذ تحصل له حلاوة وسرور وقرب من الله لا يوازيه شيء.



الأسئلة:

1) ما هدف الله تعالى ومراده من إخراج الأنفس إلى الحياة الدنيا؟.
2) بيّن أثر العمل في تسامي النفس وقربها من خالقها موضحاً ذلك بمثال.
3) ما أثر الشهوة في توليد الأعمال؟.



الدرس الثالث:

حرية الاختيار وأثرها في قيم الأعمال

أما وقد بيَّنا في درسنا السابق قيمة العمل وأثر الشهوة من حيث الذوق واللذة ومن حيث الدفع إلى الأعمال وتوليدها إيَّاها، ومن حيث إعطاؤها العمل قيماً متناسبة معه، فمن اللازم علينا أن نتكلم عن حرية الاختيار، تلك الحرية التي تجعل المخلوق يُباشر العمل مريداً مختاراً لا مرغماً مقهوراً، وبالحقيقة لا يستطيع المخلوق أن يتقرب بعمله إلى خالقه خطوة وليس يمكن أن يجد له قيمة، إذا لم يكن لهذا المخلوق في عمله حرية واختياراً، وتوضيحاً لذلك نُقدِّم المثال الآتي فنقول:

هب أنَّ أميراً كان يسير في الطريق يوماً وحدَّثته نفسه بأن يشتري متاعاً فتقدَّم أحد حاشيته منه وحمل له ذلك المتاع متطوعاً مختاراً، فيا ترى هل يكون حال هذا الرجل الذي حمل المتاع للأمير متطوعاً كحاله فيما لو لم يتقدَّم هو بذاته وأكرهه الأمير على القيام بذلك العمل إكراهاً؟!. لا شك أنه في حال تطوعه وقيامه بذلك العمل بناء على اختياره يكون أقرب إلى أميره نفساً وأكثر عليه إقبالاً.

وإذاً فمباشرة الأعمال مباشرة مبنية على الحرية والاختيار تجعل لهذه الأعمال قيماً عالية تستطيع النفس أن تستند عليها في إقبالها على خالقها، فتسعد بالقرب من جنابه الكريم، وتستغرق في مشاهدة جماله وكماله بقدر ما قدَّمت من أعمال.

فكيف ومتى ملَّكنا الله تعالى تلك الحرية؟.

عرض الأمانة وتصدِّي الإنسان في عالم الأزل لحملها

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

ما هي الأمانة؟

لا بدَّ لنا لفهم المراد من كلمة **(الأمانة)** من أن نقدِّم مثالاً فنقول:

لو أنِّي كنت أملك متاعاً من الأمتعة وأودعته صديقاً لي شريطة أن أسترده منه بعد حين، فهذا المتاع الذي هو ملكي ما دام عند صديقي فهو أمانة في يده.

وكذلك المخلوقات إرادتها في الأصل مُلك لخالقها ومُوجدها، وهي مرهونة لأمره تعالى، فلا تملك إرادة ولا اختياراً. وقد أراد تعالى كما قدَّمنا آنفاً أن يعطي الأنفس أكبر عطاء فبيَّن الوسيلة التي تصل بها إلى نيل هذا العطاء وذلك بأن عرض عليها أن يجعل إرادتها التي هي مُلكه تعالى **أمانة** بين يديها وأن يجعلها حرّةً في اختيارها السير إلى أعمالها المتولِّدة عن شهواتها. إنَّ إعطاء هذه الإرادة والحرية في الاختيار هي ما نقصده بكلمة **(الأمانة)** التي مرَّت بنا في الآية الكريمة.

نعم لقد عرض تعالى الأمانة في عالم الأزل على الأنفس جميعها بلا استثناء، ثمَّ بيَّن لها أن حمل الأمانة، وإن شئت فقل حرية الاختيار في السير إلى الأعمال، أمر ذو خطر عظيم. فإذا كان المخلوق يستطيع بهذه الوسيلة أن يرقى بعمله ويصل إلى مرتبةٍ دونها سائر المخلوقات، فهو إلى جانب ذلك قد يهوي به عمله إلى درجة لا يمكن أن ينحط إليها أحد من العالمين. ولذلك ورحمة من الله تعالى بمخلوقاته بيَّن لها

---

[1] سورة الأحزاب: الآية(٧٢).

أنَّها إذا هي رضيت بحمل الأمانة وخرجت إلى الدنيا فسيرسل لها كتاباً يكون نبراساً ومرجعاً لها في أعمالها، فإذا هي استنارت بنوره تعالى لدى مباشرتها العمل المتولد عن الشهوة واستهدت به سبحانه واستلهمته الرُشد في سيرها، فسيكون صراطها مستقيماً وسيرها مأموناً، وعملها متطابقاً مع طريق الحق الذي يبيِّنه كتابه تعالى، وبذلك تُعصم من الزلل وتُحفظ من الوقوع في الأذى والضرر، ويكون عملها سبباً في رُقيّها وتساميها، فإذا هي جاءته تعالى بعد موتها كان لها من أعمالها العالية الإنسانية سنداً تعتمد عليه في وجهتها، ومتكأ تتكىء عليه في إقبالها على ربِّها، وهنالك تفوز بالقرب من جنابه الكريم وترقى رقيّاً أبديّاً متتالياً في جنَّات النعيم.

أمَّا إذا هي حملت الأمانة ثم جاءت إلى الدنيا ولم تستنر بنوره تعالى ولم تستهد بهداه لدى سيرها إلى أعمالها، فلا شك أنَّها ستخطئ طريق الحق الذي يصل بها إلى السعادة، وستكون أعمالها كلّها أذى وإضراراً بالخلق، فإذا هي جاءت خالقها بعد خروجها من الدنيا فعندئذٍ تقف بين يديه خجلى من أعمالها، ذليلة بما تحمله بين يديها من لؤمها ودناءتها، وإنه ليحجبها عملها الدنيء عن الإقبال عليه تعالى، فتغضي منه حياءً وخجلاً ولا تستطيع أن تقبل عليه بوجهها، ثمَّ أنها لتتذكَّر ما شهدته في عالم الأزل وتنظر إلى تفريطها في جنب الله وخسرانها ذلك الكنز العالي، فتحرقها الحسرة حرقاً لاذعاً مؤلماً فلا تجد لها مأوى إلاَّ نار جهنم مشفى لتدواى وتعالج بها صابرة، فترتمي بها لتغيب بألم النار وعذاب الحريق عن ألمها وعذابها النفسي الشديد.

قال تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾** ﴾[1].

---

[1] سورة البقرة: الآية(١٧٥).

وفي الحديث الشريف: **«إنَّ العارَ ليلزمُ المرءَ يوم القيامةِ حَتى يقولَ: يا ربِّ لإرسالُكَ بي إلى النار أيسرُ عليَّ مما ألقى، وإنه ليعلمُ ما فيها من شِدَّةِ العذاب..»**[1].

ذلك كله بيَّنه تعالى للأنفس يوم عرض عليها الأمانة فعرفته وعقلته، رأت ما وراء حمل الأمانة من الخيرات وما في خيانة الأمانة وما وراء التفريط من الحسرات.

وهنالك وفي هذه اللحظة التي تجلَّى فيها الفضل الإلٓهي وتبدَّت العدالة الإلٓهية لسائر المخلوقات، في هذه اللحظة الحاسمة تقهقرت جميع المخلوقات ورهبت من التقدم لهذا الامتحان، لما قد يتبعه من الفشل والشقاء، وإن كان وراءه من السعادة والخيرات.

نعم إنَّ الأنفس كلها أبت حمل الأمانة وأشفقت منها، ولم يتقدم لحملها إلاَّ فئة واحدة غامرت مغامرة عظيمة، وعاهدت ربها على ألاَّ تنقطع عنه لحظة واحدة، وهناك قَبِلَ ربها عهدها وميثاقها وأكبر مغامرتها ووعدها بجنة الخُلد إن هي وفَّت بعهدها. وإلى ذلك العرض وذاك العهد يُشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾[2].

وينطوي تحت كلمة ﴿..ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ..﴾ ما فيهن من أنفس وما اشتملت عليه من مخلوقات. وتشمل كلمة﴿..ٱلۡإِنسَٰنُ..﴾ بحسب ما يُشير إليه

(١) الجامع الصغير /٢٠٥٩/ (ك).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٧٠ ـ ٧٢).

القرآن الكريم في مواضع أخرى على أفراد النوع الإنساني والجان. أمَّا كلمة ﴿..**إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ فهي لا تعني إثبات الظلم والجهل للإنسان إنَّما هي كلمة مدح وإكبار، وقد جاءت في صيغة الاستفهام الاستنكاري محذوفة أداته زيادة في تقرير المعنى المُراد. إنَّها تقول: **أكان الإنسان ظالماً لنفسه بعهده هذا... وهل كان جاهلاً ما وراء حمل الأمانة من الخيرات؟.**

أم أنه عرف ما وراء ذلك من سعادة لا تتناهى فتقدَّم وغامر وكان بذلك أكرم المخلوقات، ذلك كان موقفك أيُّها الإنسان في ذلك اليوم العظيم وتلك هي منزلتك بين سائر العالمين. لقد رضيت بالخروج إلى الدنيا دار العمل لتعمل صالحاً، وطلبت الشهوة لا لذاتها وما فيها من متعة بل لتكون دافعاً لك إلى الأعمال، وغامرت إلى جانب ذلك كله في حمل الأمانة ليكون لأعمالك في نظرك شأن وقيمة عالية، فرضيت بأن تكون حراً في اختيارك وأن تعطى إرادتك فينفِّذ لك ربُّك ما تريد ويهبك القوة على القيام به، ثمَّ عاهدت ربَّك على أن تظل مستنيراً دوماً بنوره لتكون إرادتك متوافقة مع ما شرَّعه في كتابه، ولئلا تزلَّ بك القدم أثناء اختيارك، نعم لقد طلبت ذلك كله لتكون أحظى المخلوقات بمعرفته تعالى وأوفرهم حظاً بمشاهدة جمال هذا الكنز العظيم والنظر إلى وجه ربك الكريم.

الملـخَّص: سأل الله تعالى الخلق: ألست بربكم؟.

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾** ﴾[1].

[1] سورة الأعراف: الآية(١٧٢).

فالأنفس التي رضيت بحمل الأمانة أي حرية الاختيار، سألهم الله تعالى آخذاً عليهم العهد والميثاق قبل دب الشهوة فيهم ﴿..أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ..﴾ فأجابوا ﴿..بَلَىٰ شَهِدْنَآ ..﴾ وحين دب الله تعالى فيهم الشهوات انقسموا إلى أربعة أقسام بالمنازل والدرجات:

(١) **أناس نالوا الشهادة بصدقهم مع الله تعالى:** وهم السادة الرسل والأنبياء، وسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ نال أعلى درجة.

(٢) **من بعدهم المؤمنون:** وهم أقل درجةً **«إنَّما بُعثت لأتممَ مكارمَ الأخلاق»**[١].

(٣) **الراسبون والذين لديهم إمكانية عظيمة للفوز مجدداً في الدنيا،** هنا في الدنيا يسمو بصاحب القابلية، والعمر الذي منحه الله للإنسان فيه فرصة عظيمة له، حتى إذا اجتهد وسلك طريق الإيمان نال رضى الله تعالى وغدا صحابياً جليلاً. فهؤلاء الراسبون إن نظروا وفكَّروا بهذا الكون العظيم، وبالبداية والنهاية لهذا الخلق ينجحون، بل وينافسون السابقين. هؤلاء ينفعهم حديث رسول الله ﷺ:

«إنَّما بُعثت معلِّماً» [٢]معلِّماً للإيمان، أي: طريق الإيمان بالله.

(٤) **الذي لا جدوى له:** هذا لا يمكن له أن يهتدي أبداً، لذلك جعل الله تعالى عمره قصيراً، دون سن البلوغ يموت، قال تعالى: ﴿..وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ..﴾[٣]. وهؤلاء الأولاد الذين يموتون دون سن السادسة عشرة يصبحون أولاداً مخلدون بالنعيم ويقومون بخدمة أهل الجنة وتلك عين الرحمة والعدالة الإلٰهية.

لـمَّا خلق الله تعالى الأنفس بيَّن لها الطريق:

إن جئتم للدنيا وسلكتم طريق الحق ما انقطعتم عني واستنرتم بنوري ربحتم ربحاً عظيماً.. وإن لم تفعلوا خسرتم خسارة كبرى. فالإنس والجن قالوا نحن لها...

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة. (٢) عن ابن عمرو مرفوعاً/ رواه الدارمي.
(٣) سورة الأنعام: الآية (١٦٥).

ولمَّا دبَّ تعالى الشهوة فيهم، أناس صدقوا وأناس في نفوسهم شهوة خبيثة، ونظر الله تعالى إلى الخلق ساعتئذٍ: فالذي صدق كسب الكمال.. سيخرج للدنيا ويظهر بكماله هذا نجح، والذي لم يصدق وبقيت الشهوات في نفسه يُخرجها له في الحياة الدنيا ثمَّ يضيّق عليه لعلَّه يتوب ويرجع إلى رُشده. **كمدرسة**: أناس نجحوا في الدورة الأولى نجاحاً نهائياً.. وأناس لم ينجحوا في الدورة الأولى، لذلك هذه الدنيا لهم بمثابة دورة ثانية ليتلافوا أمرهم. وهنا تفيد آية: ﴿..**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ** ﴿١٦٥﴾﴾[1]. فالله تعالى يُضيق على الإنسان ويُشدد عليه بعد إخراج شهوته إلى حيز العمل، وما هذا التضييق والتشديد إلا رحمة من الله تعالى، لكي يعود المُقصّر الراسب إلى جناب ربه الغفور الرحيم، ويُشرق نور الله في نفسه من جديد.

وقد طالب الله تعالى عباده جميعاً بوفاء عهدهم معه، وأثنى تعالى على الذين لا ينقضون ميثاقهم الذي قطعوه على أنفسهم في عالم الأزل.

قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ** ﴿٢٠﴾﴾[2].

﴿**وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ** ﴿٨﴾﴾[3].

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ**..﴾[4].

﴿..**وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا** ﴿٣٤﴾﴾[5].

إذن: نرى من خلال الآيات الكريمة مطالبة الله تعالى لعباده بالوفاء لعهدهم الذي عاهدوا الله عليه بالأزل قبل قدومهم للحياة الدنيا..



(١) سورة الأنعام: الآية (١٦٥).
(٢) سورة الرعد: الآية(٢٠).
(٣) سورة المؤمنون: الآية(٨).
(٤) سورة المائدة: الآية(١).
(٥) سورة الإسراء: الآية(٣٤).

الأسئلة:

١) قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[1] ما معنى الأمانة الواردة في الآية الكريمة؟.

٢) ما هو سبب تقهقر الأنفس جميعها باستثناء الإنس والجن من عدم حمل الأمانة؟

٣) ما معنى قوله تعالى بنهاية الآية الكريمة ﴿..إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾؟!.

٤) لماذا منح تعالى الإنسان عمراً في هذه الحياة الدنيا؟.

٥) إلى أي شيء يشير الرسول الكريم ﷺ بكلمة «معلماً» الواردة بحديثه الشريف «إنما بعثت معلماً»؟.

٦) ما هو سبب وفاة بعض الأطفال دون وصولهم إلى سن التكليف، وهو سن السادسة عشرة وإلى أين يكون مصيرهم بعد الموت؟.

٧) وضح لماذا لا تستطيع النفس الإقبال على الله تعالى والرقي في حال لو أنها أكرهت على الأعمال الصالحة؟.



---

[1] سورة الأحزاب: الآية(٧٢).

الدرس الرابع:

الملائكة الكرام وباقي الكائنات

رأينا في الدرس الماضي كيف حمل الإنسان الأمانة وهي حرية الاختيار وكيف عزفت باقي الأنفس عن حمل هذه الأمانة وتلك الحرية خوفاً على مصيرها، ومن هذه الأنفس التي عزفت عن الدنيا وشهواتها ولم تجرؤ أن تتقدَّم لما تقدَّم له الإنسان، فلم تطلب لنفسها إرادة ولا اختياراً، بل ملَّكت تلك النفوس إرادتها لخالقها وبذلك سُمِّيت "ملائكة".. لقد ضحَّت الملائكة بالشهوة في سبيل بقائها قريبة من ربِّها، فكان لها من عملها هذا وتضحيتها سبيل وسيلة تُقرِّبها من خالقها. وإن كان الإنسان الصادق بمجابهة شهوته وتوجيهها وفق إرادة خالقه وقيامه بالأعمال بناءً على اختياره أعلى من هذه الفئة منزلةً وأكثر منها في هذا المضمار سبقاً.

الحيوانات والنباتات والجمادات

وأخيراً: نريد أن نتكلَّم عن فئةٍ لم تطاوعها نفسها العزوف عن الشهوة، ولم تشأ أن تضحِّي بما وراءها من لذةٍ ومتعة، وهي إلى جانب ذلك لم تجرؤ على حمل الأمانة وملك الإرادة، ولذلك طلبت الشهوة شريطة أن تكون مقيَّدة الإرادة.. وينطوي تحت هذه الفئة صنوف الحيوانات والنباتات والجمادات.

فهذه الصنوف الثلاثة طلبت من خالقها أن يخرجها إلى الدنيا، وأن يمنحها الشهوة التي تتذوق بها فضله تعالى، وأن يجعل شهوتها مقرونة بوظيفة تؤديها في خدمة هذا

الإنسان ليكون لها من خدمة هذا المخلوق الكريم في عملها وسيلة تقرِّبها من خالقها، وهنالك عرض ربها عليها الكون وما فيه من الوظائف والخدمات التي يتأمن منها سير الحياة الدنيا، فاختار كل مخلوق من هذه المخلوقات وظيفة، فطلب الجمل مثلاً أن يكون مسخراً مذللاً لحمل الإنسان وحمل متاعه، واختارت بعض النباتات أن تكون له طعاماً وغذاءً.. كما اختارت الشمس أن تكون للإنسان سراجاً وهّاجاً.

وهكذا اختار كل مخلوق وظيفة وعملاً، وهناك اقتضت إرادته تعالى أن يكون لكل نفس من هذه الأنفس الأعضاء والحواس المعينة لها على القيام بمهمَّتها والثوب المتناسب مع وظيفتها، فجاء الكون الذي نراه الآن قائماً على أبدع حال وأكمل نظام، يشهد لك كل ما فيه بحكمة الحكيم وعلم العليم وقدرة القدير ورحمة الرحمن الرحيم. قال تعالى: ﴿..**مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤**﴾[1].

وإلى هذه الناحية، ونعني بها تسخير هذه الفئة من المخلوقات، وجعلها مذللةً في خدمة الإنسان، تشير طائفة من آيات القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ** ﴾[2]. ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[3].

(١) سورة الملك: الآية (٣ـ٤).
(٢) سورة الملك: الآية (١٥).
(٣) سورة البقرة: الآية (٢٩).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[1].

فانظر أيها الإنسان كيف أن الكون كلّه يتقرَّب بخدمتك إلى خالقه زلفى، فإن أنت وفَّيت بعهدك، فقد تفوَّقت وسَموْتَ على المخلوقات جميعاً. وإن أنت أعرضت عن خالقك ومِلت إلى شهوتك، ساء عملك وصِرت أحطّ من الحيوان شأناً، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾[2].

تفاضل الناس وتسابقهم في عالم الأزل

والآن بعد أن عرفنا منزلة الإنسان بين سائر المخلوقات **نقول:** لم يكن بين أفراد هذه الفئة التي حملت الأمانة يومئذٍ سابق ومسبوق، ولا فاضل ومفضول، ولم يكن بينهم ساعتئذٍ نبي ولا رسول، فأبونا آدم عليه السلام ومن سواه كلهم كانوا يومئذٍ بين يدي خالقهم سواء، إذ لم تكن لهم بعد من أعمال يتفاضلون بها، وليس يميز أحداً عن أحدٍ بين يدي هذا الإلّه العادل ما دام الخلق جميعاً عباده سوى الأعمال، ولذلك وتشميلاً لمبدأ العدالة، ولئلا يكون لأحد من الناس على الله

---

(١) سورة ابراهيم: الآية (٣٢-٣٣).

(٢) سورة البينة: الآية (٦ ـ ٨).

حجةً، عرض تعالى على بني آدم جميعاً كما ذكرنا من قبل كما عرض على الجن أيضاً أنه سيضع فيهم الشهوة، وذكَّرهم بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم بأن ينظروا للشهوة بنور خالقهم الكريم، وحذَّرهم من الانقطاع عنه طرفة عين، ثمَّ إنه تعالى عرض عليهم الدنيا وما فيها وألقى في نفوسهم الشهوة وذكَّرهم بعهدهم منادياً:

﴿..**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**..﴾ أي: ألست الذي خلقتكم وأوجدتكم، بإمدادي قيامكم وحياتكم، ألست المتفضل عليكم، أفيمكن لكم بعد هذا أن تنقطعوا عني وتنظروا إلى الشهوات دون الاستنارة بنوري؟ وما إن سمعوا كلمة ﴿..**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**..﴾ حتى أجابوا جميعاً بكلمة ﴿..**بَلَى**..﴾ أي: أنت ربّنا، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ**..﴾[1]. غير أن كلمة ﴿.. **بَلَى**..﴾ لم تكن ساعتئذٍ صادرةً من ألسنة واحدة، وإنَّما تمايز بنو آدم وانقسموا أقساماً وصاروا على درجات.

فمنهم من نظر إلى شهوته فاستهواها واستغرق فيها فغمرته وسترته عن خالقه المتفضِّل عليه بها، وكان من هذه الأنفس أنفس الكفَّار جميعاً، إذ الكفر هو الستر، فهؤلاء سترتهم شهواتهم عن خالقهم فانغمسوا بها ونسوا عهدهم الذي عاهدوه.

وهناك أنفس ذكرت عهدها لخالقها فقالت: بلى، أي أنت ربنا ولا ننقطع عنك، فما أن رأوا الشهوة حتى افتتنوا بها ونسوا عهدهم أيضاً، وينطوي تحت هذه الفئة المنافقون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

وهناك أنفس أخرى نظرت إلى الشهوة فاستحلتها ومالت إليها، غير أنَّها ذكرت عهدها لخالقها فعادت إليه تائبةً من تقصيرها، وتشمل هذه الفئة على العصاة الذين

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٧٢).

إذا جاؤوا إلى الدنيا مالوا إليها، فإذا ذكَّرتهم ذكروا وعادوا تائبين من تفريطهم نادمين على تقصيرهم فيما مضى.

أمَّا الأنفس التي ذكرت عهدها ولم تنظر إلى الشهوة إلاَّ بنور خالقها، ولم تتحوَّل عنه أبداً، فتلك هي الأنفس المؤمنة حقاً التي صدقت مع ربها بالوعد الذي قطعته على نفسها، لقد رأت الشهوة فرأت فضل خالقها عليها بها، فشكرته على فضله وحمدته على نعمته. وتشمل هذه الفئة على السادة الأنبياء والمرسلين وكُمَّل المؤمنين، فهؤلاء جميعاً قالوا بلى ونفوسهم مشغوفة بحُب خالقها إقراراً بفضله وحمداً له على نعمته، وكان أسبق هؤلاء في ذلك إلى الله تعالى وأحمدهم له على نعمته وفضله سيدنا محمَّد ﷺ.. وبذلك صار للعالمين سيداً وللمرسلين إماماً.

ونظر الله تعالى إلى بني آدم في تلك الساعة من بعد أن احتل المكانة التي احتلها، فعلم سبحانه أنَّ فئة الكافرين والمنافقين الذين أعرضوا عن ربِّهم ولم ينظروا إلى شهواتهم بنور خالقهم، هؤلاء قد امتلأت نفوسهم بذلك الإعراض خبثاً وأمراضاً،

ولا بدَّ لهم من الخروج إلى الدنيا ليخرج من نفوسهم خبثها ومرضها، كما علم أنَّ فئة المؤمنين الذين نظروا إلى شهواتهم بنور خالقهم وعرفوا فضل ربهم. هؤلاء قد امتلأت نفوسهم بإقبالها على ربها خيراً ولا بدَّ لهم من الخروج إلى الدنيا أيضاً ليُظهروا ما في نفوسهم من كمال.



الأسئلة:

١) لماذا سميت (الملائكة) بهذه التسمية ؟.

٢) من هو أعلى عند الله تعالى الملائكة أم الإنسان الصادق؟.

٣) وازن بين موقف الملائكة الكرام ومواقف الكائنات الأُخرى من الشهوة؟.

٤) لقد أشفقت النباتات والحيوانات والجمادات من حمل الأمانة (والإشفاق يعني: تمني الحصول على الشيء والخوف منه بنفس الوقت) فما الذي طلبته هذه الفئات الثلاث من خالقها بعالم الأزل؟.

٥) قبل إلقاء الشهوة في الذين حملوا الأمانة ناداهم الله تعالى ﴿..أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ..﴾ ؟ فكان جوابهم ﴿..قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ..﴾ فهل كانت إجابتهم موحدة، أم أنهم تمايزوا؟ وضح الحال الذي غدا به بنو أدم في تلك اللحظة.



الدرس الخامس:

مسؤولية النفس بين القضاء والقدر

تمهيد:

إن بحث القضاء والقدر متعلق بدروسنا السابقة كثيراً، إذ أن هذا البحث يمكن فهمه بسهولة ويسر لترابطه مع الدروس السابقة لعالم الأزل وقضية قدومنا إلى هذه الحياة الدنيا.

ولا بدَّ لنا لفهم معنى القضاء والقدر من أن نقدم مثالاً فنقول:

لو أنَّ معلِّماً كان لديه عدد من الطلاّب فنظر إليهم نظرة قبل الفحص الذي يجري عادةً آخر العام، فلا شك أنه بما يعلمه من أحوالهم وسيرهم خلال السنة الدراسية، يستطيع أن يحكم على فريق منهم بالرسوب حتماً، كما يحكم على آخرين بالنجاح، فهذا الحكم القطعي الذي يحكمه والذي لا يمكن أن يتطرق له الخطأ نستطيع أن نسمِّيه قضاء، مأخوذة من **(قضى)** بمعنى: حكم في الأمر وبتَّ.

ثمَّ إنَّ هذا المعلم يستطيع أن يقدِّر درجة كلٍّ من هؤلاء الطلاّب الناجحين، فيقول مثلاً: فلان ستكون درجته كذا، وفلان درجته كذا، فهذا اليقين والتقدير لدرجة كل واحد من هؤلاء الطلاب نستطيع أن نسمِّيه قدراً، وزيادة في إيضاح معنى كلمة **(القدر)** نقدِّم مثالاً آخر فنقول:

لو أنَّ سائقاً نظر إلى مستودعات البنزين في سيارات عديدة، وشاهد الأرقام التي وصلت إليها سوية البترول في كل سيّارة منها، فقال: هذه السيارة تستطيع أن تقطع عشرين كيلومتراً، وهذه أربعين، وهذه لخلوها من البترول لا تستطيع أن تسير أبداً، فهذا الحساب الذي يحسبه، وذلك التقدير الذي يقدِّره لكل سيارة بناء على علمه بما فيها من وقود، هو ما نستطيع أن نسمِّيه قدراً، وهكذا فالله تعالى قدَّر لكل إنسان منزلةً بعد أن اطَّلع على ما في نفسه وعلم ما فيها.

وهذا المثال الذي قدَّمناه يُبيِّن لنا أنَّ الله تعالى لم يجبر أحداً على السير في طريق دون طريق، لكنَّه علم حال الخلق ومنازلهم علماً وقدَّر ذلك تقديراً.

وإذا كان الإنسان قد يُخطئ في تقديره لقصر علمه عن الإحاطة بدقائق الأمور وخفاياها، فالله تعالى لا يمكن أن يتطرق لتقديره خطأ، لأنَّ تقديره مبني على علم كامل وشامل.

إنَّ هذه الأمثلة التي قدَّمناها ليست إلاَّ تقريباً للأذهان لمعنى كلمة **(القضاء والقدر)**. فالله تعالى لَّما نادى الخلق في عالم الأزل بكلمة ﴿..**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**..﴾ وأجابوه جميعاً بكلمة ﴿..**بَلَى**..﴾ نظر تعالى إليهم فعَلِمَ ما كمن في نفوس أولئك الذين نظروا إلى شهواتهم بنوره تعالى من الخير، وما امتلأت به نفوسهم من كمال، كما علم ما كمن في نفوس الذين لحقوا شهواتهم معرضين عنه تعالى، وشهد ما استقر في نفوسهم من خبث وأمراض. علم تعالى ما في نفوس هؤلاء وهؤلاء، فقضى أي: فحكم بما سيكون من هؤلاء المقبلين إذا جاؤوا إلى الدنيا من خير وما

سيظهر منهم من كمال، كما قضى بما سيكون من أولئك المعرضين إذا جاؤوا إلى الدنيا من خبث ولؤم وما سيحلُّ بهم من الخُسران.

لقد قضى تعالى أي: حكم حُكماً ثابتاً لما علمه في الفريقين كما قدَّر لكل واحد منزلته التي سيصل إليها بعمله تقديراً متناسباً مع إقباله.

ومن هنا نستطيع أن نرد أقوال أولئك الذين يقولون كذباً، إن الله خلق أُناساً سعداء وآخرين أشقياء، وإنه خلق أناساً للجنة وأناساً للجحيم، فالله تعالى لم يفرِّق بين مخلوق ومخلوق، إذ الخلق جميعاً عباده، لكن الذين أصغوا إلى وصية خالقهم ونظروا إلى الشهوة بنوره تعالى، أولئك هم الذين سعدوا فإذا جاؤوا إلى الدنيا كانت الدنيا مظهراً لحقيقتهم، ومرآة لما انطبع من الكمال في نفوسهم. والذين أعرضوا عن خالقهم، أولئك هم الذين شقوا، فإذا هم جاؤوا إلى الدنيا تبيَّن للناس خبثهم، وشهدوا بأعمالهم على أنفسهم. ذلك هو القضاء والقدر. وتلك هي عدالة الله في خلقه، وما الدنيا إلاَّ مِحك للنفوس فلا بدَّ للكامل من أن يظهر فيها كماله، ولا بدَّ للمعرض من أن يظهر لؤمه وخبثه. قال تعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾[1].

﴿ **الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ** ﴾[2].

﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ** ﴾[3].

(١) سورة الكهف: الآية (٧).
(٢) سورة العنكبوت: الآية (١ـ٣).
(٣) سورة القلم: الآية (٧).

ومن علامة السُعداء أنَّك إذا ناديتهم إلى الإيمان أجابوا، ومن علامة الأشقياء أنَّهم إذا ذُكِّروا لا يذكرون وإن يروا سبيل الرُشد لا يتّخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً.

إنَّ هذه الحقائق التي أوردناها في بحثنا هذا مما تتجلّى به عدالة الله تعالى في خلقه ورحمته بعباده، هذه الحقائق التي شهدها المؤمنون فازدادوا بها حباً بخالقهم، وغفل عنها الغافلون المحجوبون عنها بشهواتهم، ستظهر بعد الموت جليةً واضحةً للناس جميعاً، وهنالك يعترفون بفضل خالقهم عليهم، ويُقرّون بعدالته ورحمته ويحمدونه على عنايته بهم. قال تعالى: ﴿..**وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾[1].

فالبشر المكلّفون على ثلاثة أقسام:

- قسم في الأزل نال الشهادة النهائية وهُم السادة الأنبياء والرُسل الكرام.
- قسم إكمال، عليه نقص بعض الدرجات، في الدنيا يتلافى أمره « **إنَّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق** »[2].
- قسم رسب، إن اجتهد في الدنيا نجح، وطريقه الإيمان بواسطة الكون مثل طريق إيمان سيدنا إبراهيم عليه السلام «**إنَّما بُعثت معلِّماً**» أي: للإيمان.
  وبلفظ آخر «**بعثت داعياً ومبلِّغاً**»[3]: داعياً للإيمان، ومبلِّغاً لمن بَلَغ.

وكل إنسان لديه أهلية تامة، وكل واحد إن فكَّر نبغ، وكل امرئٍ وله طريق، ففتش عن الشيء الذي إن فكَّرت به رُقيت.. الإنسان مُهيَّأ لهذا الرقي. أما الذين يموتون دون وصولهم لسن السادسة عشرة، فهؤلاء غير مكلفين بالدنيا، لعلم الله بهم أنهم إن

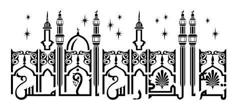
---

(١) سورة يونس: الآية (١٠).

(٢) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن عدي ٣/٣٩.

كبروا فلن يظهر منهم خير أبداً، بل يزدادون طغياناً وكفراً، فرحمة بهم يأخذهم دون وصولهم لسن التكليف.



الأسئلة:

1) إن كلمة (القضاء) أتت بمعنى: حكم وبتَّ. فلماذا حكم الله تعالى على الأنبياء من قبل ولادتهم أنهم سيأتون للدنيا وسيكونون أنبياء عظام؟.

2) ما معنى كلمة (القدر) وهل يصح القول أن الله تعالى خلق أناساً للجنة وأناساً للنار من دون أن يكون لهم أي اختيار في ذلك؟ وضح ذلك، واذكر أدلة قرآنية تدل على كامل الحرية والاختيار.



الدرس السادس:

الفرق بين النفس والروح

تمهيد:

علمنا من دروسنا السابقة المهمة الكبيرة التي حملها الإنسان، وفهمنا فهماً تاماً لماذا أرسلنا الله تعالى لهذه الدنيا، ورأينا أن النفس البشرية هي محور وأساس خلق هذا الكون العظيم، ولكن لا بد لنا من درس خاص نبين فيه الفرق بين النفس والروح، وبين العقل والفكر، إذ البشرية قاطبة لم تستطع أن تميز بينهم، وذلك بسبب عدم إدراكهم أو ابتعادهم عن منبع العلم الحقيقي وهو القرآن الكريم.

فنبدأ أولاً بشرح بسيط لمعنى كلمة الناس:

إن كلمة **"الناس"** التي هي اسم جنس لبني آدم، مشتقة لفظاً من فعل **(نَسِيَ)**، إذ سُمُّوا "بالناس" لأنهم بمجيئهم لهذه الدنيا وخروجهم لعالم الصور والأجسام، نسوا ما كانت عليه نفوسهم في عالم الأزل من المعرفة بالله تعالى، فكان هذا الجسم المادي حجاباً حجب النفس عن معرفتها بذاتها من حيث ضعفها وحاجتها وافتقارها الكلِّي إلى خالقها ودوام سابق معرفتها، وهنا في الدنيا مدرسة أخرى جعلها الله تعالى ليتذكر الإنسان ويعود إلى خالقه، فالذين لم ينظروا بالكون ليهتدوا إلى الله تعالى، ونسوا أنفسهم بأن لم يتعرفوا على سبب خلقهم ولم يروا أن الله تعالى هو الذي أوجد الخلق ومنه حياتهم وبقاءهم ليعودوا فيتذكروا

ويخلصوا من علة النسيان، يخاطبهم الله يوم القيامة: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ[1] وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[2]

أين مركز نفس الإنسان؟.

تحدثنا في أولى دروسنا أن مركز النفس يكون في صدر الإنسان، ونقدم هنا بعض الأدلة القرآنية على ذلك... قال تعالى مبيِّناً مركز النفس في آيات كثيرة منها:

﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾[3]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾[4]

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ..﴾[5]

إذاً النفس مركزها في صدر الإنسان كما بيَّنتْ الآيات الكريمة، ولكن كيف تسري بباقي جسمه؟.

النفس تسري في جسم الإنسان عن طريق الأعصاب، وحين تخدير الأعصاب تنسحب النفس من مكان التخدير ولا يعود المريض يشعر بأي ألم ولو بُتِر عضو من أعضائه، بسبب مغادرة النفس من المكان المخدَّر.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى..﴾[6].

---

[1] جاءت هنا بصيغة الاستفهام الاستنكاري لإقرار حقيقة في القلوب، أي أن الله تعالى لم ينسى الكافرين، دائماً عيون رعايته تعالى عليهم فيمدهم بالوجود والحياة، فهو لا ينساهم أبداً.

[2] سورة السجدة: الآية(١٤).

[3] سورة الناس: الآية (٤-٥).

[4] سورة النمل: الآية (٧٤).

[5] سورة آل عمران: الآية (٢٩).

[6] سورة الزمر: الآية (٤٢).

فنفس المريض غادرت جسمه بسبب البنج (المخدر)، ونفس النائم غادرت أيضاً جسمه بسبب النوم، وتبقى الروح موجودة في الجسم، وهو يتحرك والقلب ينبض غير أنه لا يسمع ولا يدرك ولا يرى شيئاً.

ولنأخذ مثال النسوة اللائي قطَّعن أيديهن في سورة سيدنا يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾** ﴾[1].

لقد قطَّعت النسوة أيديهن لانصعاق نفوسهن لرؤية جماله عليه السلام، والنفس في هذه الحالة غادرت أجسادهنَّ متجهةً إلى سيدنا يوسف عليه السلام، فقطَّعن أيديهن وهنَّ لا يشعرن.

الروح: لقد تحدثنا ببعض الشروح المهمة عن النفس، وسندرس المزيد عنها من نواحٍ أخرى بباقي دروس الكتاب، ولكننا هنا سنتوقف لنتحدث عن الروح كي يتسنى لكم معرفة الفرق بينها وبين النفس.

فما هي الروح، وأين مركز وجودها، وما هي وظيفتها؟.

بالنسبة لتعريفها: الروح: هي الإمداد بالنور الإلۤهي الساري في الدم.

أما مركزها: فهو هذا القلب المادي.

وأما وظيفتها: فهي القوة المحركة لكافة أجهزة وخلايا الجسم.

[1] سورة يوسف: الآية (٣١).

فبواسطة الروح أي ذلك الإمداد الإلٰهي تتم تغذية وحركة وقيام وحياة هذا الجسم، وهي السلطة التنفيذية لأغراض ومتطلبات ولوازم ومشتهيات النفس، وهي تحت إمرة النفس السارية في الأعصاب الآمرة الناهية على كافة الأعضاء الإرادية واللاإرادية، والروح في الإنسان والحيوان وكافة المخلوقات الحيّة هي ذاتها، لكنها تكون في الأنبياء والرسل روحاً مقدّسة أي: منزَّهة عن الشوائب والأغراض الدنيئة، لأن نفوسهم لم تتلوَّث بشوائب الدنيا وأدرانها الخبيثة فحُفظت الروح نقية طاهرة مقدَّسة، فهي لا تنطق إلاَّ بالخير والحق والفضيلة والكمال، وحيثما حلّت حلّت الخيراتُ والأنس والنعيم والسعادة والغبطة الأبدية من الله بواسطتهم على كل من التفت إليهم.

لقد سألوا رسول الله ﷺ عن الروح، فشرح لهم ﷺ الروح وسريانها في الجسم بواسطة الدم.

وفي الحديث الشريف:

«**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد**»[1]. وذلك ما تُشير إليه الآية الكريمة: ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٨٥﴾** ﴾[2].

﴿**وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ** ﴾: فقد سألوه عن الروح تعجيزاً له، فأجابهم تعالى: ﴿ **قُلِ** ﴾: لهم: ﴿ **ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾: وكلمة ﴿..**رَبِّى**..﴾ تبيِّن ذلك

(١) متفق عليه مسند أحمد ج٣ ص١٥٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

الإمداد الإلٓهي الساري في الوجود وبه قيامك أيها الإنسان ومعاشك وقيام جميع المخلوقات من إنسان وحيوان ونبات، فلا تتحرك حركة إلاَّ بإمداده وأمره تعالى.

ولو أنه تعالى يسحب إمداده، أي: الروح عن المخلوقات لما بقي لها حركة ولا حياة.

ومثل الروح في المخلوقات كمثل التيار الكهربائي الذي يحرِّك كل الآلات التي تعمل بواسطته، فإذا ما انقطعت تلك الطاقة خمدت الآلات وسكنت حركتها وتوقَّف عملها، وهكذا تنصب الروح في الجسم على قلب الإنسان وتسري في الدم الذي يقوم بنقل الغذاء والأوكسجين إلى كافة أنحاء الجسم والعودة بالفضلات والسموم ليتم طرحها خارج الجسم عن طريق التبوُّل والزفير.

﴿**مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾: والرب هو المربي الممد بالحياة، وتعني ذلك الإمداد على القلب والدم لتتم الحياة، وإذا ما انقطع ذلك الإمداد عن المخلوقات الحية بقيت جثةً هامدة لا حراك فيها.

إن معنى كلمة ﴿**ٱلرُّوحُ**﴾ الواردة في القرآن الكريم يكون بحسب ورودها بالآيات، فالروح بالعموم: هي الإمداد بالحياة، فإما أن تكون هذه الحياة على القلب المادي وسريان الدم والحيوية في الجسم، وهذا أمر لا إرادة ولا تملك للإنسان فيه، أو تكون على قلب النفس وسريان الأنوار الإلٓهية فيها، ولهذا مطلق الحرية والاختيار للإنسان كما قال تعالى في الآية الكريمة: ﴿**رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾**﴾[1].

فهذه الروح بالآية الكريمة هنا تعني إلقاء الأنوار والحياة القلبية على قلب الرسل والأنبياء، وعلى من اهتدى بهداهم وسار بسيرهم كأمثال الصحابة الكرام .

---

(1) سورة غافر: الآية (١٥).

و يؤكِّد ما قلناه قوله تعالى: ﴿...إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ...﴾[٢].

وما هذه الروح في هذه الآية أيضاً إلا ذلك الإمداد الإلٓهي النوراني بالبيان العالي الذي أمدَّه الله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام بواسطة جبريل والنور العظيم المنزل على قلبه الشريف.

إذن الروح بالعموم هي الإمداد بالحياة، إما الحياة القلبية كما بالآيتين السابقتين، أو بالحياة الجسمية لجميع الناس دون استثناء وقيام وحياة الكون كله، وكلمة ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ بينت بوضوح أن التربية التي يتلقاها الجسم ليبقى على قيد الحياة هي من أمر الله تعالى، إذ لا حياة ولا قيام لمخلوق إلا به تعالى، وهذا أيضاً يبين معنى من معاني اسميه تعالى **(الحي والقيوم)** فلا حياة ولا قيام لأحد بدون الله وإمداده العظيم.

وبعد أن بيّن لهم تعالى على لسان رسوله الكريم ما بيّن ردَّ عليهم:

﴿... **وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴿٨٥﴾﴾ وهذه الجملة لا تعود على رسول الله ﷺ، بل على السائلين ولو كانت تعود على رسول الله ﷺ لجاءت بصيغة "وما أوتيت" بل جاءت وهو المتكلم قل لهم يا محمد: وما أوتيتم أنتم أيها المعرضون من العلم إلاَّ قليلاً. **ونوجز القول:**

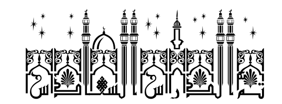
إذا نظر الإنسان نظرات المفكِّر المستبصر في هذا الكون فإنّ نظراته هذه تقوده إلى أن هناك خالقاً عظيماً ومدبِّراً حكيماً، فيستقيم على أمره وهذه الاستقامة تولِّد العمل الصالح والثقة برضاء الله عليه، فتكون له بمثابة وسائل يتقرب بها إلى الله ويكتسب منه تعالى كمالاً فيُحب أهل الكمال ويُحب سيد الكاملين ﷺ،

---

[٢] سورة النساء: الآية (١٧١).

فتصاحب نفسه نفس رسول الله ﷺ المقبلة دوماً على الله عز وجل، فيرى إمداده تعالى النوراني سارياً في هذا الوجود في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ وذلك ما نعنيه بالروح.

وبهذا يتبيَّن لكم الفرق الكبير والبون الشاسع بين النفس والروح، والذي لم تعلمه البشرية قاطبة ،بل تاهت وضاعت في معرفة تبيانه.



الأسئلة:

١) ما هو سبب تسمية الجنس البشري (بالناس)؟.

٢) الإنسان النائم تكون حواسه كلها موجودة من سمع وبصر وشم وذوق، فلماذا لا يرى ولا يسمع ولا يعي شيئاً مما يدور حوله ؟.

٣) ما هي الروح وأين مركز وجودها؟.

٤) ما هي وظيفة الروح التي تسري بالإنسان والحيوان والكون كله؟.

٥) ما السبب في أن تكون الروح في الأنبياء الكرام مقدسة ومنزهة عن الأغراض الدنية؟.

٦) ما معنى الاسم الكريم (الرب)؟.

٧) ما المقصود من ذكر القرآن الكريم أن سيدنا عيسى عليه السلام (روح منه)؟.



الدرس السابع:

الفرق بين العقل والفكر وعلاقتهما بالجسم

بعد دروسنا عن النفس والروح ومعرفة الفرق بينهما بالمنطق العلمي والوقائع العملية البسيطة المحيطة بنا، نستكمل دروسنا بالحديث والتفصيل عن العقل... ولكن لا بدّ قبل الحديث عن العقل من التمييز بينه وبين الفكر، فأحياناً يقولون عقل وأحياناً يقولون فكر دون إدراك الفرق بينهما.

فما هو العقل؟

العقل: هو صفةٌ نفسية تُسمَّى به النفس حينما تحوز حقيقة ما، وتتمثَّلها وتتشرَّبها فتكون لباساً لها تتَّصف بها فتكون عقلاً لها.

فالمدركات النفسية هي ما عقلته هذه النفس وتخلّلت به واتَّصفت به، فالنفس كالمرآة حينما تتَّجه لأمر بكلِّيتها فينطبع بها، فهي بالأصل صفحةٌ بيضاء نقية فحينما ينطبع فيها أمر ويستحوذ عليها يسمَّى بتلك الحالة عقلاً، فالعقل نفسي، والفكر دماغي، والروح حركي، والجسم مطية ومركب لهم جميعاً، فكل أمر تهتم به النفس وتصدق بطلبه فتحوِّل شعاعها إلى الفكر فيعمل ويُطبع بها، فهذا الطبع في النفس يسمّى "عقلاً".

للنفس شعاعٌ حينما يسري لشيء فإنما يسري سريان نور الشمس، بل أسرع بكثير، إن صدَقَتْ وَصَلَتْ بهذا الشعاع إلى الأبدية، كما ترجع به إلى الأزل، فهي تصل بهذا الحال إلى الشيء قبل الوصول إليه فهذا هو العقل أيضاً، فحينما توقن بالموت وتسري من خلاله إلى الآخرة فتشاهد ما فيها كما شاهد رسول الله ﷺ، فأولئك المشاهدون بقلوبهم ونفوسهم مرافقون للنبيّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، أمثال الصحابة الكرام.

وهناك عقل أزلي مكتسب عند الإنسان وعند الحيوان، وهذا ما طبعه الله على صفحات الأنفس جميعاً قبل مجيئها للدنيا كي تقوم بوظيفتها على أتم وجه.

قال تعالى: ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠** ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ **سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣** ﴾[2]. وقوله الكريم: ﴿ **ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤** ﴾[3]: والمراد بالقلم: الكتابة. نقول: قلم الوزارة، ونعني بذلك: دائرة التسجيل والكتابة، حيث تُسجَّلُ الوقائع وتُكتب.

ويكون المراد من كلمة (القلم) الواردة في هذه الآية: ما ثبَّته الله على صفحات الأنفس من الغرائز، وما أوجده فيها من الشهوات، فلكلِّ مخلوق غريزة خاصة، ولكل مخلوق شهوات مناسبة.

فالطفل الرضيع من الذي يهديه إلى ثدي أمه من أول لحظة يأتي بها إلى الحياة، لا يلبث أن يخرج من بطن أمِّه حتى يُحرِّك شفتيه مُستعداً للرضاع.

---

(١) سورة طه: الآية (٤٩ـ٥٠).
(٢) سورة الأعلى: الآية(١ـ٣).
(٣) سورة العلق: الآية(٤).

ونقف البط لا يلبث فرخه أن ينقف حتى يعدو إلى الماء، فيسبح فيها بمهارة وإتقان عجيب. ونقْفُ الدجاج لا يلبث أن يخرج من البيضة حتى يحفر الأرض ويفتش في التراب بحثاً عن غذائه فيه.

والمهر منذ خروجه من بطن أمه تراه يقفز إلى أثدائها فيمتص اللبن منها وقد كان من قبل مغيَّباً عنه ولم يطَّلع عليه.

والهرُّ يفترس، والعُصفور يبني عشه على أكمل وجه وأتم ترتيب.

والنحلة تبني الخلية بناءً مُحكماً وتجني العسل من الأزهار.

فمن الذي علَّم الطفل منذ خروجه إلى هذا العالم الرضاع؟!

من الذي علَّم فرخ البط السباحة في الماء، ونقْف الدجاج إلى البحث في التراب عن غذائه، ومن هدى المهر لثدي أمه منذ خروجه، وعلَّم الهرَّ الافتراس والقضاء على الحشرات، ومن الذي علَّم العصافير كيفية بناء الأعشاش وأرشدها إلى أن تضع فيها ألين الريش ونُتف الحرير، أم من هدى النحلة لامتصاص الرحيق من الأزهار؟.

تلك هي قدرة الحكيم الخبير والخالق العظيم، كتَبَتْ على صفحات كل نفس ما يناسب معيشتها وما هي بحاجة إليه. فترى كلَّ مخلوق يهتدي بفطرته إلى ما أثبته الله في نفسه من الغرائز مما تقوم به حياته ويتأمَّن معه بقاؤه، وتتم له به سعادته، من غير ما حاجة إلى دلالته وإرشاده إليه، فهذه الغرائز المثبتة على النفوس والشهوات المكتوبة على صفحات القلوب، أمكنتْ كلَّ مخلوق من الاهتداء، وأرتهُ طريق السير في هذا الوجود.

ولولا هذا النقش، وإن شئت فقل لولا هذا القلم لوقفت الخلائقُ حيارى لا تقوم بعمل، ولا تشتهي شيئاً، ولا تهتدي إلى شيء.

فالتعليم إذاً إنما هو بالقلم، أي: توصُّل كل مخلوق إلى كيفية السير في الحياة إنما هو ناشئ عن تلك الكتابة التي كتبتها يد الحكيم الخبير على النفس، فسبحان من أودع الغرائز المختلفة في هذه المخلوقات، وجعل لها هذه الشهوات تدفعها إلى السير وتجعلها تتمتع بلذة الوجود والسعادة في الحياة.

إنه العقل الملهم أي ما طُبع في نفس كل مخلوق منذ الأزل للقيام بوظيفته، والحيوان يأتي ويسير في هذه الحياة على حسب ما طُبِع فيه، ولا يمكن أن يغيّر وظيفته، ولكن الإنسان هو المخلوق الوحيد من بين سائر المخلوقات الذي لديه المقدرة على التغيير والتبديل وطبع وعقل أشياء جديدة في هذه الحياة بواسطة الفكر.

عزيزي الطالب: العقل بالنسبة للإنسان يتم بحالتين:

١ـ **عقل لصور الأشياء:** يحصل به العلم المادي.

٢ـ **عقل لحقيقة الأمور:** ويحصل به علم اليقين وإدراك الحق والحقيقة التي لا ريب فيها. كما أمر تعالى بسورة التكاثر﴿ **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦** ﴾[١]. أما عقل صور الأشياء: يتم كما ذكرنا سابقاً بصدق النفس وتوجُّهها للأمر الذي تريده.

مثال: سائق السيارة في بداية تعلُّمه القيادة يواجه صعوبات في قيادة السيارة ويستعمل كل حواسه وملكاته، أما بالنهاية وبعد أن يتعلَّم جيداً أي بعد أن يعقل السواقة يصبح الأمر بالنسبة له بسيطاً جداً فتراه أثناء انطلاقه بسيارته يشعل لفافة التبغ ويتحدث ويغيب بأحاديث مهمة، ولكنه ودون شعور ولا تركيز يقف أمام أضواء المرور الحمراء، ويتجاوز الخضراء ويتفادى الاصطدام بسيارات الغير.

---

[١] سورة التكاثر: الآية(٥ـ٦).

وهب أن شخصاً ما يُتقن السباحة وبينما كان نائماً على ضفة بحرة أو بحيرة سقط أثناء تقلُّبه في النوم بالماء فإنه وقبل أن يعي أين هو وماذا حدث وما الخبر ترى حركات يديه ورجليه البارعتين بالسباحة تنقلانه على سطح الماء دون علم أو إدراك أو وعي لهما فلا يغرق! يحدث ذلك حتى قبل دوران دواليب فكره أو إرادته، وذلك هو العقل. لقد كانت نفسه قد عقلت السباحة فطبَّقتها باللاشعور منه.

أما بالنسبة لعقل حقيقة الأمور اليقينية:

فهذا الأمر يحتاج لنور أقوى من الأنوار المادية التي نراها مثل ضوء الشمس والقمر والكهرباء وغيرها، إنه يحتاج لنور الإلٓه العظيم جلّ جلاله، ولكن هذا متوقف على سير الإنسان بطريق الحق وصدقه مع ربه وسماعه وتطبيقه لأوامره تعالى التي يسمعها على لسان رسله الكرام، لذلك نشاهد كثيراً من الآيات الكريمة يخاطب الله تعالى بها رسله الكرام بأن يبلِّغوا عباده ﴿..**لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴿١٦٤﴾﴾[1].

فالعقل إذاً: هو ما تعيه النفس وتحتويه، وحتى تَعِيَهُ لا بدَّ للإنسان من أن يتوجَّه إلى ذلك الشيء الذي ستعبُّهُ نفسه وعلى قدر اهتمامه وتوجُّهه الكلِّي يكون عقله.

وعلى سبيل المثال في المدرسة نجد أن الطالب الذي توجَّه بكلِّيته إلى معلِّمه وكان مهتمَّاً نراه يعقل ما تعلَّم بعكس من شرد ولم يعبأ بشروح وتفصيلات المعلم.

فالعقل: إذاً لا يتم إلاّ بعد التفكير التأمُّلي العميق وهذا ما نلاحظه في آيات كثيرة من القرآن الكريم، حيث ترد كلمة (يتفكرون) وتليها مباشرة (لقومٍ يعقلون).

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٦٤).

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۡهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِى ٱلۡأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾[1].

وقوله الكريم: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمۡرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[2].

نستنتج مما سبق أن العقل لا يكون إلاَّ بعد التفكير العميق في الشيء ولا يذكر تعالى كلمة "الفكر والعقل" عبثاً فهناك فرق بينهما وهذا ما بيَّناه آنفاً وإليك عزيزي الطالب أمثلة أخرى.

مكوك نول النسيج إن كان خالياً من الخيطان فهو لا ينسج قماشاً. وإن كانت فيه خيوط نَسجَ الأثواب القماشية والحريرية والصوفية المزركشة بالألوان الجميلة.

وكذلك آلة الطباعة بوجود الحبر فيها يدخل الورق فارغاً ويخرج مملوءاً بالأخبار والصور والقصص، وإن لم يكن بالمطبعة حبر يدخل الورق أبيضَ ويخرج أبيضَ كما دخل.

كذا باجتماع الفكر مع النفس بدافع الخوف ينتج العقل والشهود النفسي، حينها تتقلَّب بالشهود بدوران الفكر "على المليان".

---

[1] سورة الرعد: الآية (٣-٤).

[2] سورة النحل: الآية (١١-١٢).

وإلى وجود العقل بالنفس يُشير القرآن الكريم في سورة الحج: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ..** ﴾[1].

فهذه الآية تُبيِّن بأن العقل هو في القلب أي: قلب النفس وليس في الرأس الذي يحوي آلية الفكر في الدماغ.

ما هو الفكر؟

أما تعريف الفكر: كلمة **الفكر** لغةً مأخوذة من (فكك ورأى)، أي: إن آلية الدماغ حينما تتوارد إليها المشهودات بالعين أو المسموعات بالأذن، أو المحسوسات بالحواس تبدأ بعملية التفكيك والتركيب أي التحليل والاستدلال، وذلك حينما يكون المرء صادقاً في طلب الوصول لأمر ما فإن شعاع النفس يسري للدماغ فترى النفس مطلوبها، وقد ميَّز تعالى الإنسان بهذا الفكر عن سائر مخلوقاته.

وفي الحديث الشريف: «**تفكر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة**»[2]. الفكر مركزه بالدماغ، فبواسطة هذا الفكر يستطيع الإنسان التفكيك والتحليل والإدراك، وهو القارب الوحيد لنجاة الإنسان وخلاصه من مخالب وبراثن محبة الدنيا الدنيئة ومهلكاتها.

وبواسطة الفكر يستطيع الإنسان أن يسمو ويتسامى ويرقى لأعلى المراتب، وإذا أهمل المرء تفكيره ظلّ أعمى ومقعداً لا يشاهد ولا يرى إلاَّ صور الأشياء، وهو دون الحيوان في المرتبة وبواسطة هذا الفكر يستطيع الإنسان أن يدل نفسه ويبعدها عن شهواتها المحرّمة ويرقى ويسمو بالأنس بربه ويتسامى.

---

[1] سورة الحج: الآية (٤٦).

[2] أخرجه الديلمي مرفوعاً عن أنس.

وكل ما نراه الآن من اختراعات وصناعات وتكنولوجيا إنما تمّ عن طريق التفكير والصدق في طلب ذلك، هذا لمن تحوّل وصدق بتفكيره في مجالات الدنيا، ويمكن التفكير والصدق في مجال آخر في مجال الحياة الحقيقية والسعادة الأبدية، وهذا لا يكون إلا بالبحث عن الإِلٰه العظيم، إذ هو مصدر الحياة ومصدر السعادة الحقّة ومصدر العطاء ومثالنا في ذلك الصحابة الكرام وصحابة الرُّسل عندما صدقوا بالبحث عن الإِلٰه العظيم وتعرّفوا عليه كيف أنهم نشروا العلم والسعادة والرحمة والعطف والإنسانية في جميع أنحاء المعمورة، فأصبح الإنسان أخا الإنسان وحبيبهُ وخليلَهُ.

أمَّا مثالنا على من استخدم تفكيره للحياة الدنيا وأغراضها وشهواتها ما نشاهده ونسمعه عن الغربيين والشرقيين دعاة الإنسانية.

ومن عدالة الله تعالى ورحمته أن منح هذا الفكر لكل إنسان دون تمييز إنسانٍ عن آخر.

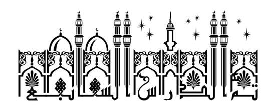
إذاً فالعقل يتم بالصدق فإذا صدق المرء بأمر من الأمور فسرعان ما يسري شعاع النفس إلى الفكر فتعمل دواليب الفكر وينتج.

أما هذا "الجسم" المركَّب من اللحم والأعصاب والعظام والدم فهو عبارة عن ثوب النفس ولباسها ومركبها وواسطتها لتحقيق حاجاتها وطلباتها وأهدافها وميولها وانحرافاتها أو فضائلها وأعمالها العالية. وهو الذي سينطق عليها يوم القيامة ويكون شاهداً على اختيارها وأعمالها التي حققتها من خلاله، قال تعالى:

﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾**﴾[1]. وما شهادة جسم الإنسان عليه يوم القيامة إلا دليل على

[1] سورة فصلت: الآية (٢٠).

انفصال النفس عن الجسم وتبيان أن النفس هي التي ستحاسب وفقاً لأعمالها فإما أن تدخل جنة أو ناراً، أما الجسم فلا علاقة له بذلك بل هو مسخر وخادم لها مثله مثل باقي الكائنات.



الأسئلة:

١) **ما هو العقل وأين يوجد، وما هي وظيفته؟.**

٢) **ما معنى الجملة التالية (العقل هو الوصول إلى الشيء قبل الوصول إليه)؟.**

٣) **ما هو العقل الأزلي؟.**

٤) **كيف يستطيع الإنسان أن يصل إلى عقل حقائق الأمور، أو ما سماه تعالى بسورة التكاثر بعلم اليقين؟.**

٥) **ما هو الفكر، وأين مركزه، وما هي وظيفته، وما علاقته بالعقل؟.**

٦) **قال تعالى:** ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ النور: الآية (٢٤). **ماذا تستنتج من شهادة جسم الإنسان عليه يوم القيامة؟.**

❖❖❖

الفصل الثاني

١) نموذج تطبيقي على آلية عمل الفكر وتأثيره على النفس، قصة واقعية... (الجريمة الغامضة).

٢) تأثُّر النفوس غير المكلَّفة بالنفوس المكلَّفة.

- النفوس التي لم تحمل الأمانة ورضيت أن تكون مسخرة لنا.

٣) العلاقة بين النفس والجسد(تأثير البيئة والطعام).

- الروابط والتأثيرات على النفس مما حولها.

الدرس الثامن:

نموذج تطبيقي على آلية عمل الفكر وتأثيره على النفس (الجريمة الغامضة)

تمهيد:

بعد الدروس المهمة التي ناقشناها معكم حول سبب خلق الإنسان وإرساله للحياة الدنيا، وبعد تبيان حقائق علم النفس والروح والفكر والعقل، نسوق لكم هذه القصة الواقعية والتي يتمثل بها علم النفس واضحاً والاستخدام المجدي للفكر، وذلك من خلال اكتشاف العلاّمة محمد أمين شيخو جريمة غامضة حين كان ضابطاً للأمن بدمشق في نهاية العهد العثماني ... والجريمة وقعت في قرية من قُرى دمشق تُسمى (كفرسوسة).

دخلت امرأة عجوز بيت الباشا التركي الحاكم بدمشق تعمل بمثابة امرأة غسَّالة لقاء أجر معلوم، وهكذا كانت العادة بالنسبة للحكّام والأغنياء بأن يستخدموا ذوات الحاجة للعمل في هذا المجال.

وفي إحدى المرَّات كانت هذه المرأة العجوز تقوم بواجبها وعملها في بيت الباشا التركي، فجلست إلى جانبها زوجة الباشا تريد أن تتسلّى معها وتبادلها الحديث، إلاّ أن المرأة العجوز كانت تغسل والدموع تنساب من عينيها بغزارة، فسألتها زوجة الباشا عن سبب بكائها الشديد، فبدأت تمسح دموعها وتقصُّ لزوجة الباشا عن ألمها وحزنها، فقالت:

مات زوجي منذ أمد بعيد وخلَّف لي ولداً وحيداً فبتُّ أحيطه بأروع ما تكون الرعاية وأُغدق عليه أعظم ما يكون من حنان، وقلبي عليه يوماً بعد يوم، وتمرُّ الأيام والسنون ويكبر الأمل أن يكون عوناً لي في كبري وسنداً ومعيناً لي في هذه الحياة.

وما أن أصبح شاباً يافعاً في نضرة شبابه حتى طوَاهُ الردى عني بأشنع ميْتةٍ وقتله الظالمون، فبقيت وحيدة فريدة في هذه الحياة الصعبة أشكو شيخوختي وهذا ما دفعني إلى العمل لأسدَّ عوزي وأدبر أمر معاشي، إذ لا مُعين لي إلا الله، ومسحت دموع الحزن والحسرة وهي تتنهد بحرقة وألم كبير.

نعم، لقد بكت فأبكت زوجة الحاكم والي الشام التي كفكفت دموعها وسألتها: من هم القتلة؟.

فقالت: لم يُعرفوا... وأُرسلت عدّة دوريات للتحري في هذا الموضوع ولكن دون جدوى وهُدر دم ابني ولم أُعوَّض بفدية لعدم عثورهم على القاتل الجاني وتركوني بعجزي أعمل للقمة العيْش.

هنالك انطلقت زوجة الباشا إلى زوجها مباشرة تخبره بقصة هذه المرأة العجوز، ولشدة تأثُّرها كانت تقصُّ القصة للباشا وهي تبكي فتأثَّر الباشا بالغ التأثُّر واتصل مباشرة بقائد الجيش والدرك العام آمراً إياه بالمثول بين يديه حالاً.



وعند حضوره خاطبه بغضب: أين رجالك رجال الأمن، ما هذا التهاون والتقاعس والإهمال، أجريمة وفي قرية صغيرة وتمضي أشهر ستة ولا يُكتشف الجاني القاتل؟. بئس الرجال رجال الأمن المتقاعسون، وطلب منه أن يذهب للتحرّي في هذا الموضوع، وشدَّد وألحّ بغضب لكشف الجريمة مهما كلَّف ذلك من جهود، فحيَّاه وخرج مفكِّراً:

ما هو السبيل؟ لقد اختفت آثار الجريمة منذ ستة أشهر، وذهبتْ عدَّة دوريات من رجال الأمن للتحقيق والتحرّي ولكن دون جدوى.

وهنا تذكّر القائد العام الضابط المجرّب السيد محمد أمين حيث إنهم اعتادوا أن يلتجئوا إليه أثناء الشدائد والمحن فتنحلُّ على يديه العُقد وتنكشف الجرائم ويبطش بالشر وأهله، وهو "بعون الله" لا يؤمن بالمستحيل. فاتَّصل به مباشرة للحضور وكان يوم جمعة أي يوم راحته، فجاء فوراً يستطلع الخبر. فأخبره قائد الجيش بما حدثَ، وأن الحاكم طلب التحرِّي عن هذه الجريمة مباشرة.

فقال له: سيادة القومندان (وهو اسم رتبة القائد العام باللغة التركية) هذا يوم راحتي. وإذا كان بالإمكان تأجيل هذا الموضوع للغد.

ذلك لأنه كان قد نوى أن يصلِّي هذا اليوم صلاة الجمعة في الجامع، لكن قائد الجيش رفض ذلك وطلب منه الذهاب وفوراً بأن يأخذ معه ما يشاء من رجال الأمن، وزوَّده بمهمة رسمية بأن يجعل الكلَّ تحت إمرته وأن يتعاونوا معه حتى ولو كانوا أعلى منه بالرتبة.

فأجابه: حاضر، وحيَّاه وخرج متَّجهاً إلى القسم عن كره وعدم رضى لأنه نوى الصلاة في الجامع وسيضيِّع وقت الصلاة... صلاة الجمعة.

اكتفى بسبعة من رجال الأمن ورجل آخر اختاره دليلاً للطرقات واتَّجه بهم إلى قرية "كفر سوسة" قرب مدينة دمشق، حيث الجريمة الغامضة.

وفي الطريق طلب من الدليل أن يخبره عند وصولهم لحدود بساتين البلدة، وأثناء الطريق أطرق رأسه مفكِّراً بالحل واستعان بالله بصدق وتصميم ملتجئاً إليه بخضوع، حنيفاً مستسلماً لما أسداه إليه بالسابق من توفيقات وانتصارات دائمية.

❖❖❖

وعند وصولهم حدود بساتين البلدة أخبره الدليل بأنهم قد وصلوا إلى حدود القرية، موقظاً إياه من استغراقه العميق بربه.

فطلب منهم أن يتوزَّعوا على كلِّ الجهات والطرق المؤدِّية إلى البلدة، وأن يقودوا معهم كلَّ من يشاهدوه في الطرقات والبساتين من الناس إلى ساحة البلدة.

ولدى وصولهم البلدة عليهم أن يتعاونوا مع رجال الأمن الموجودين في البلدة ويجمعوا أهالي البلدة كلّها من بيوتهم في الساحة العامة، وأن يُحضروا كلَّ الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين /١٦ـ٧٠/ سنة، ولا يبقوا أحداً بلا استثناء.

وفعلاً، قام رجال الأمن بمهمتهم على أتم وجه وجمعوا الناس جميعاً في ساحة البلدة، وعندما وصل الضابط السيد محمد أمين إلى ساحة البلدة أخبرهم بأنه قادم لاكتشاف جريمة الشاب المغدور ابن المرأة العجوز، وذكر اسمه بعد أن جمع الناس كلَّهم بالمقهى الكبير بعد إخراج الكراسي والطاولات منه، وطلب شيخ البلد "الإمام" والمختار والأعضاء الاثنين للبلدة، كما طلب من أصحاب أربع محلات مواجهة للمقهى بأن يفتحوا محلاتهم ويرجعوا للمقهى وقوفاً، وأجلس شيخ البلد والمختار والأعضاء كل واحد منهم في محل على إنفراد، (بهذه الطريقة أجلس الضابط شيخ البلد في محل والمختار في محل وأيضاً الوجيهين كل منهما في محل يجلسون على كرسي وأمامهم طاولة) وحمل الضابط محمد أمين كرسياً من كراسي المقهى بعنف وعصبية وبسرعة وضعه أمام شيخ البلد وجلس عليه وظهره إلى أهالي البلد وراح يُحدِّق بعينيه متفرِّساً بعيون الشيخ متأملاً، والشيخ ينظر إليه بفزع بانتظار الكلام، لكنه لم يسأل ولم يتكلم بأية كلمة، فصُعق الشيخ من هذا المشهد، واستمر هكذا حتى مضى من الوقت خمس دقائق، ثم حمل كرسيه وبسرعة انتقل للمحل الذي يجلس به المختار ووضعه أمامه، وكأنه توصَّل لنتيجة

وراح ينظر إليه ملياً، والمختار ينتظر السؤال وقد سُمّرت عينا المختار بعيني الضابط فزِعاً ورعباً ولكن لا سؤال، لكنه فعل كما فعل مع سابقه حتى مضى من الوقت أيضاً خمس دقائق، ثم حمل كرسيه بسرعة ووضعه أمام العضو الأول، وفعل معه تماماً كما فعل مع سابقيه... حتى مضى من الوقت خمس دقائق، ثم حمل كرسيه أخيراً ووضعه أمام العضو الثاني وجلس عليه وأهالي البلد ينظرون إلى هذه المشاهد كلها، وهم يظنون أن الأحاديث تدور بين الضابط وكل من يجلس معه، إلا أن الضابط السيد محمد أمين تصرّف مع العضو الثاني تماماً كما تصرّف مع أسلافه... تحديق بالعينين بلا كلام، حتى مضى من الوقت خمس دقائق، ثم قام بسرعة وبعنف وهيجان ملتفتاً إلى أهالي البلد الذين ران عليهم الصمت والسكون، وكأن على رؤوسهم الطير...

صرخ بصوت كالزئير فجأة:

اخرج "كشفتك"، وإذا بصوت شاب يقول: أنا سيدي؟!.

فابتعد عنه الناس مباشرة، قال له: نعم أنت أيها الخبيث اخرج.

فانكشف الناس عن الشاب، وما أن خرج حتى قاده رجال الشرطة إلى أحد الدكاكين الأربعة المفتوحة وألقوه أرضاً بناء على أمر الضابط المقدام ووضعوا حبل "الفلقة" في رجليه ورفعوهما.

حمل الضابط السيد محمد أمين سوطه وبدأ بضرب هذا الشاب ضرباً مبرحاً حتى بلغت خمسين جلدة، عندها أيقن الشاب بالموت. فقال له ضابطنا:

اعترف بالحقيقة وإلاَّ ستموت تحت السوط، فصاح الشاب مترجياً: سيدي والله لم أقتله أنا، بل قتله ابن المختار.

فنادى الضابط على ابن المختار.

فأجابوه: بأن ابن المختار في مثل هذا الوقت يكون نائماً، لأنه يسهر الليل كله بشرب "الخمر".

فأرسل رجال الأمن إلى بيت المختار لإحضاره، وفعلاً وجدوه نائماً في فراشه، فأجلسوه وساقوه مقيداً إلى ساحة البلد حيث الضابط وأهالي البلد جميعاً، فرأى ابن المختار هذا المشهد والشاهد عليه وشاهد ثان سيحضر للشهادة ضده، وأنه لا مجال للإنكار، فاعترف بالحقيقة كالتالي، بأنهم كانوا جالسين بأحد البساتين ومعهم شاب ثالث من قرية داريا يتسامرون ويشربون الخمر، وإذا بالشاب ابن المرأة العجوز قادم على دابته قرب البستان، فبدأ ابن المختار يسمعه من الكلمات النابية، وحيث أنه سكران وفاقد لوعيه لم يكتفِ بذلك، بل قام واستل خنجره وطعن الشاب في ظهره فأرداه قتيلاً وعاد يتابع جلسته مع رفاقه مسروراً مخموراً وكأنه قتل فأراً، أو كأنَّ شيئاً لم يكن.

هنا قيَّده الضابطُ وساقه معه إلى قائد الجيش ومعه رفيقه كشاهد، وأرسل دورية من رجال الأمن ليأتوا بالشاهد الثاني من قرية داريا ويلحقوا بهم على جناح السرعة.

وعند وصوله إلى قائد الجيش سلَّمه المجرم ومعه شاهد ضدَّه وأعلمه بأن الشاهد الثاني سيصل بعد قليل، وهنا بدأت علائم الفرح الصاعق والسرور الكبير يظهران على وجه قائد الجيش، حيث تمّت المهمَّة واكتشفت الجريمة خلال ساعتين ونصف تقريباً، ولفرحته الغامرة استعجل وانطلق مباشرة يبشِّر الباشا بما حدث، وأن المجرم قد كُشف.

وهنا كانت المفاجأة المذهلة كبيرة لقائد الجيش عندما أجابه الباشا قائلاً: جريمة تُخفى منذ شهور وكأن شيئاً لم يحدث، والآن وخلال ساعتين ونصف تظهر الجريمة، لا شك أنكم كنتم ترتشون من المختار وتتسترون عليه حتى ضغطت عليكم، أهكذا تهدرون حقوق الناس في سبيل المال بئس رجال الأمن أنتم تهدرون حقوق الناس لأطماعكم الزائلة، اغرب عن وجهي.

هنا طاش صواب القائد العام للجيش وقوَّات الأمن "الشرطة" وأصبح في حيرة تامة وضياع فما ظنَّها بشارة وظفر انقلبت عليه جرماً واتهاماً وقال:

سيدي.. لن تقتنع مني ولن تصدِّقني ولكن لي طلب واحد، وهو أن تسمع قصة اكتشاف الجريمة من الضابط الذي اكتشفها.

فأجابه: أحضره، ولكن بلهجة عدم الاكتراث والامتهان.

فحيَّاه وخرج متجهِّماً إلى السيد محمد أمين يخبره بالذي حدث مع الباشا، وبأنه طلب منه أن يحضر ليُسمعه تفصيلات اكتشاف الجريمة، وسأله: أتستطيع مقابلته وشرح تفاصيل كشفك الجريمة؟.

فأجابه بجرأة وشجاعة ولا مبالاة: نعم، ولِمَ لا؟.

فعادا إلى الباشا وكان الوالي بعهد حكم الأتراك بمثابة رئيس جمهورية بعهدنا، وكانت الشام التي يحكمها تشمل سوريا وجبل لبنان والأردن وفلسطين، وعندما بدأ السيد محمد أمين بسرد حديثه للباشا عن الخطط والأساليب التي اتبعها أثناء كشف الجريمة، كان الباشا غير مكترث ولا مهتم بحديثه، ولكن عندما وصف له كيف أنه جمع أهل البلد في الساحة العامة، وأحضر الشيخ والمختار والأعضاء، وماذا تصرَّف معهم، بدأ الباشا يُصغي وينتبه للحديث، والضابط يتابع حديثه

حتى أصبح الباشا كتلةً من الإصغاء والاهتمام البالغ والإعجاب والإكبار، وهكذا استمرَّ إلى نهاية الوصف.

هنا التفت إليه الباشا مقدِّراً ومعظماً وسأله: من أين جئت بهذه الخطة العظيمة!.

مضيفاً القول: أنا درست في ألمانيا في علم الجرائم واكتشاف المجرمين، ونلت شهادة عليا بهذا الاختصاص، ولكني لم أسمع قط بمثل هذه الخطة الإبداعية بعالم الجريمة والمجرمين.

فأجابه ضابطنا: "من هنا" مشيراً إلى رأسه، أي بالتفكير.

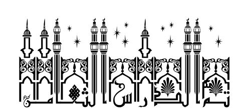
فقال الباشا: فعلاً هذه الخطَّة لا تكون أبداً إلا بالتفكير ولا تصدر نقلاً من الكتب.

وهنا زاد الباشا في تقديره لهذا الضابط وأصبح لديه من المقربين، فحيّاه ضابطنا السيد محمد أمين وخرج مع قائد جيشه منتصراً مرفوع الرأس، كما أن الغمامة السوداء التي حلَّت بقائد الجيش زالت وزاد في قربه من الباشا أيضاً، فأضحى فخوراً مسروراً.

❖❖❖

وحيث إن ضابطنا كان قد نوى أن يصلِّي الجمعة لهذا اليوم فقد قام بتنفيذ مهمته وقام بما قام به قبل موعد صلاة الجمعة، فذهب مباشرة إلى الصلاة.

وهذه أفعاله سبحانه وتعالى دائماً يفتح المجال وييسر الطريق لكل إنسان ينوي التقرُّب إليه بالصلاة ويضحِّي من أجل راحة الناس وسعادتهم.



الأسئلة:

١) كيف يتسنى لجريمة قديمة أن تكتشف من دون إجراء أي تحقيق مع أي متهم؟ اذكر الحالة النفسية التي فرضها الضابط على القتلة من خلال وضعهم بتلك الصورة الغريبة حتى أجبر الجناة على الاعتراف.

٢) ماذا كانت ردة فعل الباشا حين سمع تفاصيل اكتشاف الجريمة من الضابط؟.

٣) لماذا تيسر للعلاّمة محمد أمين شيخو أن يصلي صلاة الجمعة بالرغم من ضيق الوقت؟.



الدرس التاسع:

تأثُّر النفوس غير المكلَّفة بالنفوس المكلَّفة

النفوس التي لم تحمل الأمانة ورضيت أن تكون مسخرة لنا

لو نظرنا نظرة ملؤها التفكير من ثنايا مخلوقات هذا الكون الواسع الفسيح، وأتبعناها بنظرات تترى، لأدركنا جميعاً أن لنا ربّاً عظيماً، يمسك المجرات النجومية بأعدادها المستحيلة التعداد رغم أحجامها الهائلة الضخمة القابعة في أكباد السماء، بل هي أعظم حجماً بما لا يقاس من الجبال الشاهقة الممسكة بتلابيب الأرض بأوتادها الصخرية العميقة جداً، ربّاً واسعاً ليس لوسعته نهاية.. البحار التي تغدو محيطات كبرى متلاطمات الأمواج، والسفن البشرية في أوساطها تعوم ضعيفة بين أمواج الموت.

ربٌّ رحيم بكل مخلوق، خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، فأتحفه بالعطايا وجمَّله بالنعم، وجعل بين يديه الفكر مفتاحاً جبَّاراً إن هو صدق في توجيهه نحو بارئه كسب فوق كل مخلوقاته من شهودٍ لصاحب هذه الرحمات والسيْر الخيِّر الهادف والأعطيات.. هذا الإلٓه المشرف العظيم الكامل الذي لا يصدر عنه إلاَّ كل كمال، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها وضمَّنها في حسبان بحور إكراماته، ولا عجَب فهو ربّها الممدّ لها المتفضِّل عليها بالدوام والإيجاد.

فأنت أيها الإنسان يا من أقدمت على أمرٍ عظيم.. أَحْجَمَتْ عنه كافةُ الخلائق وخافت نتائجه، إن وفيتَ بالعهد معه تعالى بحمل الأمانة دون سائر الخلْق، فما أعظم مقامك، وما أبهاه وأسناه!. وهو القائل ومن أصدق من الله حديثاً:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾[1]!...

أكان الإنسان ظالماً لنفسه بعهده هذا؟ وهل كان جاهلاً ما وراء حمل الأمانة من الخيرات؟ أم أنه عرف ما وراء ذلك من سعادة لا تتناهى، فتقدَّم وغامر فكان بذلك أكرم المخلوقات، هذا موقفك أيها الإنسان في ذلك اليوم العظيم بعالم الأزل.. هذه منزلتك بين سائر العوالم.

لقد رضيتَ بالخروج إلى الدنيا دار العمل لتنطلق وعن طوع ذاتي بملء إرادتك إلى الأعمال الصالحة، التي ستكون لك رأس مالٍ تكسب بها جناتك.. وعاهدت ربَّك أن تظل مستنيراً دوماً بنوره، تسير به في كل أمورك ضمن شرعه الذي شرَّعه لك تعالى في كتابه الكريم، وعلى طموحك العظيم هذا ولِمَا تنال به من شأن عالٍ عند ربِّك، قَبِلَ هذا الكون وكل من فيه من المخلوقات أن يكون خادماً لك، يؤمِّن أمور معيشتك، يتقرَّب بخدمته لك درجة قرب من الله تعالى، فكل ما بين يديك من مخلوقات أمانة منحك الله إياها على أن تسير بمعاملتك لها ضمن ما شرَّعه لك تعالى .. وما من إنسان محسن، صاحب تفكير سليم ينظر في هذا الكون ونظامه ونتاجه وما يدرُّه الله عليه من نعمٍ من خلاله، إلاَّ ويشهد أسماءه تعالى الحسنى كاملة، الخالق العظيم.. المبدع الحكيم.. المسيِّر القدير.. الرحمن الرحيم.. ويدرك تماماً رحمته بنا وحنانه علينا وعلى العالمين وأنه ما خلقنا جلَّ وعلا إلاَّ للسعادة.

فكما أن خلْقه تعالى وتسييره لهذا الكون ضمن الكمال وكلٌّ يعطي أُكُلَهُ ويرفد مزيده فيكون النتاج غاية في الكمال، ولا غاية منه سوى سعادة هذا المكلَّف

(1) سورة الأحزاب: الآية (٧٢).

(الإنسان) وكذا شرْعه تعالى وأوامره في كتابه العزيز ضمن الكمال.. ذلك كان عهدنا معه تعالى أن نسير عليه في دنيانا حتى نصل للسعادة، ولا نكون ظلومين لأنفسنا جاهلين ما أعده الله لنا من سعادة الدنيا والآخرة، ونتاج تطبيق شرعه باهر فهو تعالى خالق هذا الإنسان وهو أعلم بالقانون الموصل للسعادة دنيا وآخرة، بدءاً من سعادة الإنسان إلى سعادة الخلائق كلها.

ذكر اسم الله على الذبيحة

وأحد هذه الأوامر التي أمرنا بها تعالى في محكم التنزيل هو ذكر اسم الله **(الله أكبر)** على الذبيحة أثناء ذبحها ﴿..لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ..﴾[1].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾[2]. وقال أيضاً عز شأنه: ﴿..وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**..وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحهْ، وليُحدَّ أحدكم شفرته وليُرِحْ ذبيحته**»[4]. وأيضاً قوله ﷺ: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**»[5].

وكم من آية في القرآن الكريم نوَّهتْ وذكَّرتْ هذا الإنسان بذكر اسم الله على ذبيحته سواء كانت طيوراً أم أنعاماً، وكم من حديث أَمَرَ وحَثَّ على ذلك كقوله ﷺ «**ما أُنهر الدمُ وذُكر اسم الله عليه فكلوا..**»[6].

---

(١) سورة الحج: الآية (٣٤).
(٢) سورة الأنعام: الآية(١٢١).
(٣) سورة الأنعام : الآية (١٣٨).
(٤) صحيح مسلم (٥٧/١٩٥٥).
(٥) كنز العمال /١٥٦١٣/.
(٦) كنز العمال /١٥٦٠٢/.

وقوله ﷺ : «**إذا سميتم فكبروا**» يعني على الذبيحة.

وقد أكد العشرات من أساطين الطب المخبري عليه، أن كل ذبيحة لا يذكر اسم الله عليها تكون مليئة بمستعمرات الجراثيم والمكروبات، وبالعكس تماماً فقد ظهر أن الذبائح المذكور اسم الله عليها أثناء الذبح كانت خالية تماماً من الجراثيم، وكان لون لحمها زهرياً فاتحاً.

أرأيت إلى المرء حينما يربِّي عنده حيواناً أليفاً كقط أو كلب أو سواه.. أما من وسيلة ليفهم هذا الحيوان على مربِّيه، فيأتيه عندما يناديه ثم يذهب عنه حينما يصرفه، وكذا يستدعيه للطعام فيسرع إليه ويرافقه في النزهات يلعب معه ولا يؤذيه.. أرأيت إلى سربٍ من الحمام وهو ينطلق يومياً محلِّقاً على متن الهواء في السماء يجول ويجول، ثم يعود من حيث أقلع، من حيث رفرف وانطلق، بدعوة من صاحبه.. ألا إنها نفوس وأرواح من نسيج الحضرة الإلٰهية.

إن عودةً لعالم الأزل كما ذكرنا بدروسنا السابقة عند عرض الأمانة حين أبت تلك النفوس غير المكلَّفة، وتراجعت عن حملها للأمانة وطلبت من خالقها أن يُبقي لها شهوتها ضمن وظيفة تقدِّمها إلى هذا المُكْرَم المكلَّف (الإنسان).. فجاء كلٌّ ما في الوجود حسبما نراه وكله حسب انتقاء تلك المخلوقات في عالم الأزل لوظائفها بخدمة الإنسان، فلها وظيفتها ولها عند انتهائها درجة بالقرب من الله تنالها، وهذا ما تطمح كل الخلائق إليه حيث تنال عطاءها الأكبر بعد انتهاء وظيفتها، حسبما ساهمت وقدَّمت من خدمات.

ومن الفطرة الأزلية أن عامَّة النفوس تحب الحرية وتعشقها، وتحاول التخلُّص من كل ما ينقص عليها حرّيتها أو يحدُّها وتنتظر الخلاص بشوق وتلهُّف.. وهذا نرى مثاله

في نضال الشعوب من أجل حريتها، وفي فرحة وتسابق التلاميذ للخروج من المدرسة عند انتهاء اليوم الدراسي، أو بخلاص الفصل الدراسي، وكذا في انجلاء الهموم عن قلوب العمال عند موعد انتهاء عملهم، والموظفين عندما يحين موعد انصرافهم.

عودة إلى سيدنا العظيم ذي القلب الرحيم سيدنا سليمان عليه السلام القريب من ربِّه المحبوب بخصاله الطيبة وأعماله المنيرة المشرقة بأخذه بيد التائهين المعذَّبين الضَّالِّين المضلِّين إلى سُبُل سعادتهم وهنائهم ونعيمهم، إذ كان يُجاهد ويُناضل ويُسالم ويُقاتل حبّاً بإرضاء الرب الرحيم ذي الفضل العميم لإخراجهم من ظلمات الجهل والبؤس والتعاسة إلى قمم الخير والمجد والسعادة، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣ ﴾[1]، فباندفاعه العظيم حبّاً لله أتعب الخيل في ترويضها لإنقاذ البشرية، فظنَّ بأنَّه أسخط عليه مولاه جلَّ وعلا، إذ الخلْق جميعاً من نسيج الحضرة الإلَهية العليَّة والخلْق جميعاً بما فيهم الحيوان عيال الله وأحبَّهم إلى الله أنفعهم لعياله.

فحينما شعر بأنه أتعبها، غضت نفسه حياءً واستحياءً من ذي الرحمة والجلال والجمال، وأخذ بيده الشريفة الطاهرة الكريمة وهو سلطان السلاطين وملك ملوك الأرض بالطول والعرض يمسح العرق عن أعناقها ليزيل هذا التعب البسيط الذي ألمَّ بها كاعتذار منها لأنه أضناها قليلاً فأتعبها، مسح أرجلها وأعناقها لترتاح، ثم طلب من ربِّه لكيلا يعود إلى إتعابها أن يَمنَّ عليه بوسائط أقوى وأشد ويستغني عن مجهودها، فسخَّر له تعالى الريح عاصفة تجري بأمره رخاءً حيث أصاب.

---

[1] سورة ص: الآية(٣٠-٣٣).

فما بالك بمن يؤذي مخلوقات الله فيذبحها ويؤلمها، إذ لا يذكر اسم الله عليها. وهذا غيض من فيض من رحمة الله بمخلوقاته.. فما أرحم هذا الرب جلَّ حنانه وبهاه.

أما أصحاب سيدنا سليمان عليه السلام الذين آمنوا معه بهذا الرب الرحيم، فقد اشتقُّوا العطف والرحمة والحنان بمعيَّته من الله تعالى فأصبح هؤلاء المقاتلون المُنتصرون وقد شُحنت قلوبهم بالرحمة العظمى من شدة رحمتهم لا تقبل قلوبهم أن يطؤوا بأقدامهم نملة صغيرة وهم يشعرون. فالرحمة علامة الإيمان ومن لا رحمة له لا إيمان له، حتى شهدت النمل برحمتهم وفرح سيدنا سليمان العظيم هياماً وطرباً بشهادة النملة بما شُحنت قلوبهم من حنان وعطف على مخلوقات الله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

فحاشا لله أن يقتل مؤمن نملةً عن قصد وتصميم، وهو يعلم.

فكيف يتأتَّى لمؤمن أن يذبح ويؤلم الذبيحة بعدم ذكر اسم الله عليها، هذا أبداً لا يكون.

فائدة الذكر العائدة على نفس الحيوان (الرفق بالحيوان)

لقد اختارت تلك الأنعام والطيور أن تكون طعاماً شهيّاً لنا سواء أكانت لحم ضأن أو بقر.. جمل أو طير، وعند ذبحها يأتي دور الإنسان في منحها قفزة تسمو بها من نعيمها النفسي الذي كانت عليه في دنياها إلى نعيم أرقى وأبقى.

وإنها لتسمع بأُذْنِها وتعرج بنفسها لبارئها وهي تَهِبُ جسدها أضحيةً لهذا الإنسان يكبِّر الله عليها وهو يمرِّر شفرة الذبح على رقبتها.. وبذكره هذا يذكِّرها بعهدها مع

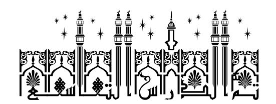
(١) سورة النمل: الآية (١٨).

خالقها، عندها تعلم أنها قد أدَّت وانتهت من وظيفتها وحان وقت انصرافها لعطائها وأجرها، عند كَشْفِ الغطاء بالموت وانتهاء تقييدها بوظيفتها تعي ما حولها وترى وتسمع، إذ أضحت نفسُ الذبيحة في عالَمها السابق "عالم الأزل".. لقد عادت من وظيفتها لطبيعتها فغدت كما كانت قبل هذا العالَم الدنيوي ذاتاً عاقلة كاملة الصفات والمعاني وذلك بعد نزع ثوبها الوظيفي. نعم لقد غدت في عالَم "كن فتكون". إنَّ هذه النفس بعد كشف الغِطاء غدت كلَّها أسماعٌ وأعينٌ وألسنةٌ وعقلٌ، يبثُّ فيها تعالى بلحظة فتفهم كافة اللغات بمجرَّد التفاتها إلى الناطقين بها فتعقل معاني اللغات البشرية كلِّها بطرفة عين، فتعليم الله تعالى منزَّه عن الزمان والمكان أي لا يحتاج إلى طول وقت، إذ أنَّ تعليمه سبحانه فوق الزمان والمكان. النفس عند الموت والنزاع قد تحوَّلت للإلَه وللآخرة فهي تفهم اللغات بالتفاتها لأصحابها بلمحٍ من بصر، فلو كان الذابح ناطقاً باللغات الأجنبية أو اللغات الصينية أو الهندية فهي تفقه سرَّ وحقيقة نطقه (الله أكبر) بأية لغة فتطير نفسُها شعاعاً لبارئِها وهي فرحة مغتبطة غبطة أبدية بالنظر إلى وجه خالق الجمال والجلال ومبدعه، واثقة من رضائِه عنها بسبب تضحيتها بجسدها لوظيفتها خدمة لهذا المكرَّم عند الله "الإنسان".. كما ترتجُّ رجَّة سعادة بانغمارها ببحرِ ربِّها النوراني المشرق المونق المغدق، وتنعكس الرَّجةُ الحِبِّيةُ على جسدها فيتدفق دمها ويفرُّ عنه كلُّ أذى.

إنها العامل الذي أنهى عمله.. والموظف الذي أنهى وظيفته وكالطالب الذي أنهى دراسته.. لقد عادت لها كامل حريتها بعودتها المطلقة لله تعالى، ولها الآن ما وعدها ربها من نعيم فلتقفز "الذبيحة" فرحةً مسرورةً، فرحاً بالغاً وسروراً متزايداً بلقائه تعالى

بتذكيرك لها باسم ربها ، فأنَّى لعذاب الذبح أن يطالها وهي تهيج هيجان المحبة لِلقاء حبيبها الذي خلق لها الجسد وكسَّبَها به قرباً منه ونعيماً.

والفضل فضله ، فما كان للمخلوق أن يخلُق جسده ، إذن فالفضل كله فضل الله ، الذي أعطى وأخذ ولكن عند الأخذ عطاء وأيُّ عطاء.



الأسئلة:

١) ما الحكمة الكبيرة المنطوية على ذكر اسم اللّٰه على الذبيحة، وماذا يحدث للذبيحة حين سماعها لكلمة (اللّٰه أكبر) حين ذبحها؟.

٢) ما الفائدة التي تجنيها تلك الحيوانات من جراء موافقتها أن تكون طعاماً للإنسان؟.

٣) لماذا تفقه الذبيحة كلمة (اللّٰه أكبر) وبأي لغة سمعتها؟.

٤) قال اللّٰه تعالى عن سيدنا سليمان عليه السلام أثناء رؤيته الخيل وقد أنهكت من التدريب ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة ص: الآية (٣٣) لماذا قام سيدنا سليمان عليه السلام بمسح أعناق الخيل وأرجلها بيده الشريفة؟.

٥) ماذا اكتشف الأطباء بلحوم الذبائح غير المكبّر عليها؟.

٦) لماذا فرح سيدنا سليمان عليه السلام بحديث النملة مع مستعمرات النمل؟ حين قالت ﴿..يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة النمل: الآية (١٨ـ ١٩).

❖❖❖

الدرس العاشر:

العلاقة بين النفس والجسد
(تأثير البيئة والطعام)

الروابط والتأثيرات على النفس مما حولها

إن مثلُ النفس البشرية كمثل الإسفنجة في تأثرها بما حولها أينما وضعتها تمتص من حولها وتتشرَّب، فنجد أن هذه النفس "الذات الشاعرة" تتأثر بالمناخ والبيئة، ذلك لأنها متعلِّقة بجسدها ينعكس عليها ما ينعكس على جسدها مما يحيط به، وإنَّا لَنَجِدُ أهل الجبال "سكان الجبال" لهم طبائع تختلف عن سكان السهول، وسكان الصحاري عن سكان الشواطئ والجزر، وسكان المناطق الجليدية الباردة عنهم في المناطق المدارية الحارة، ويصل التأثُّر تباعاً إلى نوعية الطعام السائدة، فسكان الصين لاعتمادهم في طعامهم على الرز بشكل أساسي لهم من الطبائع والمظهر ما ليس لغيرهم من سكان المناطق الأخرى، كذا أولئك الذين يعتمدون بوجباتهم بشكل أساسي على الأسماك واللحوم عن أولئك النباتيين الذين يعتمدون على منتجات الأرض أكثر من المنتجات الحيوانية.

ندرك هنا سرّاً عظيماً وحكمة إلٓهية بالغة من تحريم لحم الخنزير، فنفس الإنسان النفيسة أمانة بين يديه ليوصلها لربِّها بالإيمان، فتنصبغ بصبغة الكمال منه تعالى ومن أحسن من الله صبغةً.. عندها لا يصدر منها إلاَّ كل إحسان وخير، وغداً بعد مفارقة الدنيا ترفل لديه تعالى بسبب إحسانها بالجنان.. لذا ولأنه تعالى يريد السعادة لخَلْقه فهو يحاول بالإنسان دائماً وأبداً لِيُسلِّكه الطريق الصحيح طريق السعادة والجنَّات،

وقد أرسل له كتاباً يهديه وسراجاً منيراً "رسول الله ﷺ" يرشده إلى طريق هدايته ويبيِّن له آيات هذا الكتاب، وأحكام شريعته.. وما هذه الأحكام إلاَّ لتضمن سلامة وسعادة هذه النفس بدنياها وبآخرتها، وتقيها من كل انطباعات سيئة تصطبغ بها جرَّاء سيرها في هذه الحياة، ولتعيش في أمن وهناءة وأمان، فلقد حرَّم تعالى لحم الخنزير لما في الخنزير من صفات إباحية سيئة، لئلا يفقد الإنسان خيره ويخسر ما طبع الله فيه من فطرة الكمال التي فطر الناس عليها أجمعين.. يخسر الشرف والغيرة التي فُطِرَ عليها، لذلك كان التحريم، إذ من طبائع الخنزير أنه لا يغار على أنثاه.. على العكس تماماً من بقية الحيوانات في ذودها وحرصها على أنثاها كالديك وغيره، ولكي لا يتطَّبع الإنسان وينطبع بهذه الصفة الإباحية للخنزير عندما يأكل لحمه فيهضمه ويتمثله في جسده فتضيع القوانين الموصلة للسعادة الدائمة على مذبح اللذة القاتلة والتي يعقبها الألم كما تضيع الأنساب والذراري، والنفس قابعة بالجسد تتأثَّر بمركَّباته من الأغذية الخنزيرية فتتَّحد به وينطبع فيها ما هو مطبوع بجسد الخنزير من اتِّحاد جسده بنفسه فلا يشعر الإنسان بالغيرة على شرفه ويفقد النخوة ولا يُبالي بشرف زوجته أو بناته أو بنيه وتنهار القيم الأخلاقية الروحية وينكب على المادة ويضيع الحلال بالحرام ويفسد المجتمع:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

هنالك تنفك روابط المجتمع المقدَّسة ويتخلله الفساد والاضمحلال فالانهيار جرَّاء أكله للحم الخنزير من أجل ذلك كله كان التحريم.

وفيما يلي وقائع عملية تؤكد ذلك:

أحد المؤمنين كان قد ربَّى ديكاً بلديّاً، والمعروف أنَّ الدِّيَكَةَ البلدية شدة غيرتها على أنثاها "الدجاجة" وذودها عنها حتى يصل الأمر بها إلى معارك تدور بينها ذوداً عن الإناث. ومن باب محبة الدين وللتيقن من حكمة تحريم لحم الخنزير التي كان قد سمعها هذا المؤمن من مرشده جعل يقطع لحم الخنزير بشكل قطع صغيرة بمقدار حبة الشعير ويجعلها بمتناول هذا الديك المعزول عن بقية الدجاج "أثناء الطعام فقط".. وثابر على إطعامه لحم الخنزير لأيام قليلة فلاحظ أن الديك لم يعد يبالي أبداً بأي ديكٍ غريب يقارب أنثاه.

وقد أثبت ذلك الإمام محمد عبده في إحدى رحلاته لفرنسا وذلك لما سُئِل عن الحكمة من تحريم لحم الخنزير في شريعة الإسلام فأمر بإحضار كبش ونعجة في حجرة واحدة وتركهما لفترة من الزمن حتى صارت بينهما علاقة جنسية ثم أدخل كبشاً غريباً حاول النوال من أنثى الكبش الأول فلم يستطع لتناطح هذا الكبش معه وذوده عن أنثاه. ثم أعاد الإمام محمد عبده نفس التجربة مع خنزير ذكر دخل ليمارس العلاقة الجنسية مع أنثى الخنزير الذكر الأول الذي لم يمانع إطلاقاً ولم يعترض على اقتراب ذكر غريب من أنثاه التي كانت معه.. وهنالك التفت الإمام محمد عبده إلى سائليه قائلاً: وهكذا من يأكل لحم الخنزير إنما يورث فيه الخِسة والبلادة وعدم الغيرة، أي أنهم يكتسبون صفات الخنزير وسلوكه نحو زوجاتهم وينعدم الإخلاص فيحلُّ الشقاء بالأسرة التي هي اللبنة الأولى بالمجتمع ويعمُّ الشقاء على المجتمع بأسره.

ولهذا كان تحريم لحم الخنزير، والحقيقة أن هذه عامة حتى لحم الحمار والبغل وكل ما من شأنه أن يؤذي النفس لما فيه من صفات لا تليق بالإنسان، ولذا حرَّم تعالى لحوم

الحيوانات التي تحمل صفات التعدي والافتراس والأذى كالسباع (ذئب، ضبع، أسد..) والطيور الجارحة منها (الصقر، النسر..).

قال تعالى: ﴿ **وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ...** ﴾: ذي ظفر[1]: ناب، مخلب، الكواسر لأن بطبيعتها الأذى، إن أَكَلْتَ منها تلوَّثت نفسُك بصفاتها وتطبَّعتَ بها، إذ تصبح نفس الآكل من لحوم الكواسر تهوى الاعتداء والافتراس.. وكل إناء بما فيه ينضح.

أما اليهود فأضافوا على ذلك من عندهم: ﴿.. **وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ..**﴾: تبع الكلي؟. يستنكر الله تعالى عليهم هذه التحريفات والاختلاقات التي ما أنزل بها من سلطان". ﴿.. **إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ..**﴾: شحم البدن؟. ﴿..**أَوِ ٱلْحَوَايَآ..**﴾: شحم الأمعاء؟. ﴿..**أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ..** ﴾: أضافوا ذلك من عندهم. ﴿..**ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ** (١٤٦) ﴾[2]: بما أوردناه بالتوراة، وهذه لم ترد بها إطلاقاً.

الله تعالى يقول: ﴿ **۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** (٩٣) ﴾[3]: فسيدنا يعقوب عليه السلام الملقَّب "بإسرائيل" حرَّم على نفسه الشحم وغيره لأنه لا يوافقه وذلك لما مَرَّ به من أهوال "فراق سيدنا يوسف عليه السلام" فقد أضحت معدته لا تقوى على هضم الشحم.. جاء اليهود وحرَّموا ذلك على أنفسهم لكن على الإنسان أن يرجع للأصل: لكلام الله

(١) عدا عن أنها بيئة مترعة بالميكروبات والعوامل الممرضة لأنها آكلات لحوم.

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٤٦).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٩٣).

تعالى.﴿.. قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[1] : هل نحن حرَّمنا عليكم ما حرَّم إسرائيل على نفسه؟. هذا ليس له أصل.

قد يرد تساءل في ذهن البعض فيقول: لقد بيَّنتم بدروسكم عن سبب تحريم اللحوم غير المكبّر عليها بالمنطق والعلم الطبي، وذكرتم بياناً كافياً وافياً من حيث احتوائها على الجراثيم والعوامل الممرضة المختلفة بآليات مختلفة.. ثم عدتم لبيان سبب ذلك التحريم من جهة "نفسية" حتى أنكم توسَّعتم بالشرح وذكرتم أن النفس تتأثَّر بنوعية الطعام الذي اعتاد عليه الجسم وأيَّدتم ذلك بأمثلة من أرض الواقع وقد بيَّنتم ذلك من ناحية آكلي الخنزير وتطبُّعهم بما في الخنزير من طباع وهذا واقع ملحوظ لا يمكن نكرانه.. الإسلام دين منطقي مبني على أسس علمية وحجج وبراهين منطقية فما الآلية التي يتم بها هذا التأثُّر، إذ أن الطباع والعادات تتعلَّق بالنفس "الذات الشاعرة" سواءً بالإنسان أم بالحيوان وليس للجسم من علاقة بها، إنما الجسم مطية لتنفيذ ما يدور بالنفس ويخالجها من شهواتٍ وتعبيرٌ عما يعتلج بها من مشاعر فكيف للإنسان أن يتطبَّع بطبائع كانت بنفس هذا الخنزير وهي قد غادرت جسدها بعد موته؟.
وفي الجواب عن هذه التساؤلات نقول:

أولاً رويداً.. رويداً وليكن الحلم مركبك والتفكير مجدافك وكتاب الله بحرك الذي به تبحر، أما سفينتك العظمى التي بها ستخوض خضم هذا البحر الواسع الذي لا ينتهي سفينة النجاة والفلاح فهي نفس رسول الله ﷺ.. واعلم يا بني أنَّ الإسلام دين يقوم على حقائق ثابتة وقوانين جارية أساسية غاية في الدقة، يفوق بعلومه العالية

---
(١) سورة آل عمران: الآية (٩٣).

ومنطقيته البيِّنة كل العلوم البشرية. أما المعلِّم فهو رسول الله ﷺ الهادي المهدي، نور الحق المبين.. الذي علَّمه شديد القوى فتفوَّقت علومه العالية المتوَّجة بالتجليات القدسية الباهرة الكبرى على علوم الدنيا. إن عودة لعالم الأزل ندرك من خلالها أنه ما من ذرة في رحاب هذا الكون الفسيح إلاَّ ولها جوهر نوراني لا يزول.. إنه النفس، فلقد بدأ الله تعالى الخلْق بعالم الأزل فخلق المخلوقات من نفس الماهية، من نوره تعالى وبنفس السوية، كلها كانت نفوساً مجرَّدة عن الصور والأجساد وكلُّها متماثلة لا فرق ولا تفاوت بينها.. تعيش بقربه تعالى وتتمتع بمشاهدة نوره وجماله العظيم، وهو تعالى يغدق عليها من تجلياته، فلما عرض تعالى الأمانة في ذاك العالم عالم الأنفس تقهقرت جميع المخلوقات ورهبت من التقدُّم لها، إذ أن حمل الأمانة امتحان عظيم فبقدر ما ينال فيه الناجح من السعادة والخيرات بقدر ما فيه للراسبين من الألم والشقاء.. ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ..**﴾: وهي تضم كل ما فيها من مخلوقات من ذرات الذرات حتى واسع المجرَّات. ﴿.. **فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ..**﴾[1]: وجاء كل ما في هذا الكون خدماً لك أيها الإنسان، إذ أنت المكلَّف المشرَّف.

فمن هذه النفوس ما تطلَّب خدمتك واختارت هذه النفوس وظائفها. بعضها اختار وظيفة الحيوان فخلقه تعالى كما طلب، وغيرها اختار أن يكون نجوماً أو سموات أو جمادات، وبعضها اختار أن يكون نباتات طعاماً للإنسان فسخَّرها تعالى لنا.. وحتى أن جسم الإنسان إن هو إلاَّ مجمَّعٌ لعدد كبير من النفوس لا يعلم تعدادها إلا الله

---
(١) سورة الأحزاب: الآية (٧٢).

صوَّرها "جسَّمها" تعالى بالشكل وجمعها لتشكِّل الخلايا والأنسجة والأعضاء.. فتكوَّن الجسم. وكذا فالحيوان بذاته طلب أن يكون خادماً لك وجسمه مكوَّن من ذرات مُجسدة بنفوس أخرى اختارت أن تكون جسداً لهذا الحيوان من أجل خدمتك يا إنسان، وهكذا وبما أن نفس الحيوان وكذلك نفس الإنسان مستقرة بهذا الجسد الذي هو بمثابة مطية لها يحقِّق لها شهواتها ومتطلَّباتها وقد علِمنا أن هذا الجسم المكوَّن من اجتماع الخلايا تناهياً في الصغر لاجتماع الذرات وكلها لها ذوات جوهرية "نفوس" فهذه الذرات المشكِّلة باجتماع أجسامها جسمَ هذا الكائن الحي من إنسان أو حيوان تتأثر بذات هذا الكائن السارية في كل أنحاء جسمه وتتطبَّع بتطبُّعات هذه الذات، والعكس صحيح، ولذا فعندما يأكل الإنسان من لحم الخنزير فإن نفوس ذرَّات هذا اللحم تتطبَّع بما في الخنزير من صفات سيئة لا يرضاها الله تعالى لمخلوقه المكلَّف "الإنسان" وتدخل هذه الذرات في تركيب جسم الإنسان وبالتالي فإن نفوسها تصبح مركبة لجسم هذا الإنسان حاملة تطبعات من ذات الخنزير الحاملة للصفات المذكورة، وبما أن نفس الإنسان ساريةٌ في كل ذرّات جسمه فتتأثَّر بشكل عكسي شيئاً فشيئاً حتى يغدو هذا الإنسان متطبِّعاً بصفات الخنزير من قلة الشرف والمروءة.

وعلى النقيض من ذلك نقول عن جسد رسول الله ﷺ؛ "جسده الشريف الطاهر"، فلقد شَرُفَ وطَهُرَ لتأثُّر نفوس ذرَّاته المكونة واصطباغها على قدر تحمُّلها بالصبغة التي اصطبغت بها نفس رسول الله ﷺ ألا وهي صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.. إنها صبغة الشرف والطهارة.. الرحمة والعدل.. الحلم والكرم.. الشجاعة والمروءة.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ : من ذرَّات الذرَّات إلى كبار المجرَّات إلى كل سماء من السموات كلها لها نفوس أي: ذوات شاعرة. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾[1] .

وبالحقيقة لو تفتَّحت من الإنسان عين بصيرته لرأى وهو مستشفع برسول الله ﷺ بنور الله ما في حفنة التراب "التي ليس لها أدنى اعتبار ما فيها من نفوس مسبِّحات لا يعلم عددها إلا الله، فما أعظمك يا خالق الأكوان وممدِّها.. وما أعظم علمك الذي شمل الذرات وحتى واسع فسيح الكون والمجرَّات.. وكله يرفل بتجلِّيك وينعم بخيرك الممدود له دائماً وأبداً إلاَّ نفس ذاك الإنسان الذي أعرض عنك وابتغى العطاء من مخلوقاتك لا منك، فقد حرم نفسه من عظيم عطائك الممدود له والذي لا تنال مثيله أرض ولا سماء واسعة!.

لقد أمرنا تعالى أن نأكل ما تطيب به نفوسنا وأجسامنا، خالٍ من الانطباعات النفسية الضارَّة التي لا يريدها الله لبني الإنسان "أسياد هذا الكون". وما تطيب به أجسامنا خالٍ من العوامل الممرضة أيّاً كانت.



(1) سورة الحديد: الآية (1).

الأسئلة:

١) ما هو سبب تباين طبائع سكان المناطق المختلفة من صحاري وجبال وسواحل وسهول؟.

٢) كيف تنتقل صفات الخنزير الميت السيئة إلى الإنسان، وما هي آلية ذلك؟.

٣) لماذا لا يجوز أكل لحم الحمار والبغل والحيوانات المفترسة كالنمر والصقر وغيرها من الحيوانات ذات الطبائع الضارية؟.

٤) حرم سيدنا يعقوب عليه السلام الشحم على نفسه فهل يعتبر هذا مقياساً لغيره؟ وضح ذلك.

٥) ما الذي تَضْمَنُه الأحكام السماوية للبشرية؟ علل ذلك بمثال.



الفصل الثالث

١) مفهوم النار (الجزء الأول).

٢) مفهوم النار (الجزء الثاني).

٣) حقيقة الجنة.

❖❖❖

مفهوم النـار

يظنُّ أناس أن الله تعالى إنما يعذِّب الكافرين بالنار جزاء لهم على عصيانهم ومعاقبة على كفرهم، والحقيقة أنها تغاير هذا الظن كل المغايرة، فحاشا لله وهو الخالق العظيم والرب الرؤوف الرحيم الذي خلق الإنسان وصوَّره وأوجد له كل ما في الكون وسخَّره، أن يُعامل هذا المخلوق الضعيف تلك المعاملة. والمخلوق ليس نداً للخالق الرحيم الكريم حتى يعتبره كندٍّ لندّ، فكماله تعالى أرفع وأسمى، ورحمته أعظم وأعلى، لكن هذا الإنسان الذي فطره الله تعالى على حب الكمال وجعل نفسه قابلة للسمو فوق سائر المخلوقات، إذا جاءه الموت ورأى أنه قد دنَّس نفسه ودسَّها في الرذيلة وغمسها في الشهوات المنحطة الدنيئة وانصرف عمَّا خُلق من أجله من العمل العالي الذي يجعله أهلاً للإقبال على الله والتمتُّع بشهود ذلك الجمال الإلٓهي الذي لا يتناهى والذي دونه كل جمال أقول:

إذا رأى هذا الإنسان دناءته وانحطاطه وإجرامه وعدوانه وشاهد إلى جانب ذلك تفريطه في جنب الله وخسارته وأنه إنما قابل الإحسان والإنعام والرحمة الإلٓهية والحنان باللؤم والإعراض والكفران، هنالك وفي هذه اللحظة تحرق هذا الإنسان نار الخجل والحسرة وتكاد نفسه تتقطع أسفاً وحزناً، ويمتد به ذلك الحال إلى يوم القيامة، فإذا كان البعث والنشور لم يجد لنفسه مأوى إلاَّ النار. وذلك ما عبَّرت

عنه كلمة ﴿ هُمۡ ﴾ في آية ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

نعم إنه يأوي هو بذاته إلى النار ويرتمي فيها ليغيب بألم حريقها وعذاب هذا الحريق عن عذاب نفسه المعنوي وآلامها، قال تعالى معبِّراً عن أحوال هؤلاء العصاة والكافرين بقوله الكريم:

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

فهذا التحسر من الخسارة الواقع به الإنسان وهبوطه من سماء الجنان بيده واختياره وعن عمد وإصرار يدفعه لقبول العلاج بالنار حينها لتسكِّن عنه آلامه المرعبة.

لقد خلق الله الإنسان وجاء به إلى الحياة الدنيا بمهمة عالية تصدَّى لها دون غيره من المخلوقات عن طوع وبمحض اختياره.

ولقد ذكرنا بدروسنا السابقة كيف عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأَشْفَقْنَ منها وتعرَّض لها الإنسان فقبل بها وحملها عن طوع وبرضى تام.

إن هذا العرض فيه من الإغراء بقدر ما فيه من المخاطر، فيه السعادة الأبدية، أو الشقاء الأبدي، فإما أن يصبح حامل الأمانة خير البرية أو شر البرية.

---

(١) سورة البقرة: الآية(٣٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٣١).

وبكلمات أخرى إما الجنَّة وما فيها من نعيم مقيم، أو النار للعلاج فيها وما فيها من عذاب أليم. لقد تعرَّض الإنس والجن لهذه الأمانة وتراجعت بقية المخلوقات عنها واكتفين بالقليل بدل الكثير، ورضين بالبقاء بالنعيم الأزلي الواحد وذلك بالخدمة التي يقدِّمنها لمن يحمل هذه الأمانة. ورأى الإنسان هذا العرض وما فيه من إغراء فهانت عليه الخسارة، وقَبِلَ عن طوع أن يعبد الله. إنه كان ظلوماً جهولاً؟!.

الحقيقة أنه ظلوم جهول إذا خسر عقد الرهان، ولن يكون كذلك إذا ربحه، إن الأمانة ألاَّ تنقطع عن الله وتُبقي نفسك في صلة معه عن طريق رسولك وأن تملِّكها له في الدنيا عن طوع واختيار، وبذلك تُدين لما يأمرك الله به أو ينهاك عنه بدون إكراه.

أما باقي المخلوقات فلا تملك الإرادة لعدم حملها الأمانة، فهي مسيَّرة بغريزتها وغير مؤاخذة على أفعالها في الآخرة فإن شذَّت وخرجت عن وظيفتها فإنها تنال قصاصها العادل هنا في الدنيا. وعلى سبيل المثال لا يجوز صيد الحية أو قتلها في وكرها في الجبال أو استخراجها من باطن الأرض وقتلها لأن لها وظائف عديدة بخدمة الإنسان، منها على سبيل المثال لا الحصر أنها تقضي على فأر الحقل المهلك للقمح والزرع ومنها: حفرها لأوكارها وبذلك تسمح بهذا الحفر بتمرير الماء والهواء لجذور النباتات ولها وظائف مفيدة شتّى، فلا يحقُّ لك قتلها في أوكارها.

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ.. ﴾[1].

وقتلها بأوكارها عليه قصاص وعقاب كبير عند الله، في الدنيا بلاءات وأمراض وفي الآخرة سوف تُوقف قاتلها أمام الله تعالى والرسل والملائكة والناس أجمعين

[1] سورة الإسراء: الآية(٣٣).

والمكلَّفين وغير المكلَّفين لتسأل هذا الإنسان الذي عاهد ربَّه على الخروج لهذه الدنيا والاستئناس به تعالى فيأنس به كل مخلوق "وهذا معنى كلمة الإنسان" هنالك تسأله موبِّخةً بأي ذنب قتلها، وهي إنما خُلقت لخدمته، أفيليق به، و هل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان؟. هنالك العار والخزي أمام كافة الخلائق.

كذلك الأسد لا يجوز تتبُّعه في الغابات المنقطعة وقتله لأنه هو والضبع والذئب وغيرهم لهم وظائف في الطبيعة بخدمة الإنسان لتؤتي الطبيعة أُكُلها لهذا الإنسان المشرَّف المكلَّف. أما إن شذَّت الحية وخرجت عن وظيفتها ودخلت بيت إنسان أو واجهته في الطريق وخرجت عن وظائفها ففي قتلها أجر وثواب، وإن الله يحبُّ من عبدِهِ المؤمن الشجاعة ولو على قتل حيَّة. أي: عند خروجها عن وظيفتها. قال ﷺ: **«من قتل عصفوراً عبثاً، عج إلى الله عز وجل يوم القيامة، يقول يا ربِّ إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة»**[1] **وفي رواية: «عجَّ عصفورٌ حول العرش وله دويٌّ كدوي الرعد يقول: يا رب سل هذا الرجل لِمَ قتلني لغير مأكلةٍ».**

وكذا الأسد وكذا الضبع الذي ينظِّف وجه الطبيعة من الجيف المنتنة المليئة بالمكروب إن اعترضت طريق الإنسان فيحقُّ له قتلها ولقاتلها الأجر والثواب وعمله هذا مشكور لا يُعاب، فقتلها قِصاصها، وليس لها قصاص في الآخرة ولا نار، لأنها لم تحمل الأمانة والتكليف.

إن الضابط لهذه الإرادة هو الفكر، فإذا تعطَّل من إنسان تسقط عنه حرية الاختيار، أما باقي المخلوقات فتنال عقابها في الدنيا إذا أخطأت ولا فكر لها، أما بالآخرة فبنعيمها سادرة ولا تستوجب النار.

---

(1) سنن النسائي.

إن العمل الطوعي لا يوازيه أي عمل كان ومهما كان إذ أنه يعادل أضعافاً مضاعفة من العمل القسري أو العمل المأجور. وتحصل الثقة بنفس المرء من عمله أكثر من أي عمل آخر إن كان عمله خالصاً لوجه الله لا يريد فيه جزاءً ولا شكوراً.

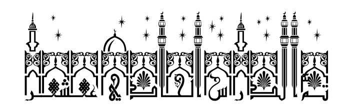
فوقْع عمل الإنسان الذي يُقدم على مساعدة أخيه الإنسان دون مقابل يكون في نفسه أسمى وأعظم بكثير مما لو كانت المساعدة مشروطة. إن الحرية لا تُباع بثمن، ونحن نتنازل عنها طوعاً وبدافع ذاتي لمن وهبنا إيَّاها إذا عرفنا حنانه ورحمته علينا وحبّه لنا عندما نلزم أنفسنا دون إكراه أن نكون عباداً له، أي: أن نتقيَّد بأوامره ونواهيه أملاً واحتساباً، وهذا التنازل أو هذه الطاعة الملزمة من ذاتنا تبعث بنا الثقة بأن الله تعالى راضٍ عنَّا فنُقبل بنفوسنا عليه ونرتشف بقلوبنا من فيض نعيمه ما يعوِّض علينا أضعاف أضعاف ما ضحَّينا به من أجله فالله يقدِّر ويشكر لنا هذا التنازل، وهذا الإلزام. ﴿..فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾[1]. فكم تكون ثقة الإنسان بنفسه عظيمة عندما ينفِّذ ما أمره الله به من الإحسان للخلْق والجهاد في سبيله، وإنفاق ما يحبُّه ويشتهيه، أو يبتعد عما هو محبَّب للنفس من النظر إلى النساء أو الإقبال على جمع المال، والتفاخر بما يفتخر به الناس، أو الامتناع عن ملذات الدنيا وبهجتها ولهوها، فله الجنَّة.

فالأمانة أن نكون أمناء على العهد الذي عاهدنا الله عليه من قبل أن نأتي إلى الدنيا. إن الأمانة ليست سرّاً مغلقاً لا يمكن تذكُّرها، إنها عهد قطعناه على أنفسنا بألا ننقطع عنه تعالى إذا جئنا إلى الدنيا وأن نسير بنوره تعالى عندها ننفِّذ ما أمرنا الله، وقد لا نتذكَّر إذا شغلتنا الدنيا وشغلتنا أنفسنا بشهواتها الدنيئة.

---

[1] سورة البقرة: الآية (١٥٨).

فالعاقل إذاً من استطاع أن يرى هذا العهد، فالرسل والأنبياء حافظوا على العهد من حيث يشعرون ولا يعلمون، ولكن مشاعر الصلة هذه سرعان ما تنكشف لهم حين سعيهم الجاد في البحث عن شيء يحسونه ولا يتبينوه، لذلك فهم هداة العالمين. ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ..﴾[1]. وبدونهم لا يستطيع الإنسان أن يتوصَّل إلى تحقيق العهد الذي قطعه على نفسه، ذلك لأنه انقطع عن ربِّه وهم لم ينقطعوا، بل بقوا شاخصين ببصيرتهم إلى جلاله وجماله محفوفين به تعالى حبّاً وهياماً. لذا فإن الرسول ينصره أهل الحق، ولا يهمهم من أي جنس كان أو في أي مكان خُلق. قال تعالى: ﴿..فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾[2]. أما الذين تقوقعوا ضمن حدود معيَّنة ولم ينظروا إلى الحق إلاَّ من خلال مصالحهم الشخصية أو العصبية أو الدينية العمياء فهم دعاة حق مزيفون. فالحق يجب أن يناصره الإنسان ولو على نفسه وإنه لا يحد بمكان أو زمان أو جنس.



[1] سورة الأنعام: الآية (٩٠).

[2] سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

الأسئلة:

1) **لماذا لا يجوز للإنسان قتل الأفاعي ضمن أوكارها بالجبال والغابات؟.**
2) **ما هو مدلول ومعنى اسم (الإنسان)؟.**
3) **في أي مجال يجوز للإنسان أن يقتل الحيوانات والحشرات الضارة؟.**
4) **كيف يمكن للإنسان أن يتذكر الأمانة التي حملها؟.**

◆..............................◆

❖❖❖

مفهوم النـار

لا زلنا بدروسنا نتكلم عن سبب دخول العصاة النار يوم القيامة، ولازلنا نتحدث عن الوفاء بالعهد الذي قطعناه على أنفسنا قبل مجيئنا إلى هذه الحياة الدنيا، ومن الوفاء بالعهد أن نكون أمناء على ما خوَّله الله لنا وسلمنا إياه، بألا نظلمهم أو نرهقهم، ولا نكلِّفهم فوق طاقتهم، وألا نتجاوز الحدود على أي مخلوق كان، حتى الذي أساء إلينا فإننا نسيء إليه بمثل ما أساء إلينا. وإذا صفحنا عنه عن مقدرة فهو خير، وحتى الحيوانات أو الحشرات المضرّة، فلا نحاول أن نُسيء إليها إلاَّ بالقدر الذي نتخلَّص فيه من أذاها. فلا ينبغي الاعتداء عليها وهي في أوكارها إلاَّ إذا خرجت عن وظيفتها، وتجاوزت مكان هذه الوظيفة، لأن لكل مخلوق وظيفة في هذا الكون، ولم يُخلق عبثاً، وكلها مسخَّرة لنا سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كما سبق وقدَّمنا بالدرس السابق.

غير أننا لا نستطيع أن نعطي الأمانة حقّها إلاَّ بمعونة ربّ العالمين لنحصل على نور نمشي به وإلاَّ تعثرنا في الظلام، وابتعدنا عن الحق، واتَّبعنا أهواءنا ونحن نظن بأننا نحسن صنعاً فإذا لم نطبِّق الأمانة قولاً وفعلاً فلن تكون لنا وجهة إلى الله، فقد يستطيع الإنسان أن يكذب على الآخرين ويغشهم ولكنه لا يستطيع أن يكذب على نفسه أو يغشها.

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝ ﴾[1].

فإذا لم تكن النفس واثقة من عملها فلن تُقبل على الله، بل تكون في حجاب عنه بهذا العمل السيء!.﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ ﴾[2].

الإنسان قد يُخفي سيئاته عن جميع الخلْق، ولكنها لا تخفى على الله، ولا تخفى على الله خافية. فكيف إذاً يستطيع أن يُقابل من أحسن إليه؟.

إن الإنسان مهما كانت شجاعته الأدبية أي: المعنوية النفسية لا يستطيع مقابلة من أحسن إليه وهو مسيء. ويوم القيامة عندما يرى إحسان رب العالمين له وفضله عليه وكيف كان يُقابل هذا الإحسان بالإساءة، سينكس رأسه من الذل والعار.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝ ﴾[3]. أي أيقنوا الآن أن دخول الجنة بالعمل الصالح وهم لا أعمال صالحة لديهم بل كل حياتهم خيانة وغش وخداع وفواحش وما يظهر من خير يكون من أجل مصالح دنيوية.

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝ ﴾[4].

إن الله تعالى هيَّأ لنا الغذاء في بطون أمهاتنا وهيَّأ لنا ما في بطونهن لبناً سائغاً ووضع الرحمة في قلوبهن للعناية بنا فيتعبن من أجلنا لنتمتَّع ببهجة الحياة، نمرض فيسهرن على راحتنا ونجوع فيقطعن عن أفواههن لإطعامنا، فهذه الرحمة التي غمرننا بها ليست رحمتهن الذاتية، بل هي رحمة من الله أودعها في قلوبهن.

(1) سورة القيامة: الآية (١٤-١٥).
(2) سورة المطففين: الآية(١٤).
(3) سورة السجدة: الآية(١٢).
(4) سورة الشورى: الآية(٤٥).

ونتعب فيهيء الله لنا ليلاً هادئاً نسكن فيه، فيسلب إرادتنا ليُريح أجسادنا من تعب النهار، ويُعيدها إلينا لنسعى ونكسب من فضله، سخَّر لنا كل ما ذرأ في الأرض من حيوان ونبات ومعادن.

أولا يكفي هذا لأن يكون برهاناً واضحاً على رحمته بنا، وحبه لنا، وعطفه علينا، وبعد ذلك فكيف نستطيع أن نقابل ربّ العالمين وبأي وجه إذا كنَّا نقابل هذا الإحسان بالإساءة، وهذا المعروف بالمنكر.

ما هي حجَّتنا إذا ظننا به بأنه ظالم، وغير عادل وغير رحيم؟ وكيف تكون لنا وجهة عليه إذا أسأنا لخلْقه الذين يحبهم كما يحبنا والذين سخَّرهم لأجلنا ولخدمتنا؟.

فكيف يجحد الناس وهذه النعم تغمرهم في كل حين! أو كيف يكفرون وهذه الآيات بينات! وكيف ينسون هذا الفضل إذا أصابهم مكروه؟! وحتى هذا المكروه ـ لو علموا ـ فإنه خير لهم ليوقظهم من غفلتهم، وليردَّهم عن غيِّهم، وفوق ذلك ما جاء إلاَّ نتيجة ما كسبت أيديهم ويعفو عن كثير.

فيوم القيامة عندما يرى الإنسان هذه الخسارة ـ خسارة الجنَّة وما فيها من نعيم بمشاهدة وجه الله تعالى، وخسارة المقام العالي الذي رُشِّح له هذا الإنسان وإذ به يهبط إلى أدنى المخلوقات، إنها لخسارة عظيمة تفوق الجبال قد ضيَّعها بشيء زهيد من حطام الدنيا وزخارفها بأيام معدودات، هناك الحسرة والندامة على ما فرَّط فيها، وقدم على الله بثوب وسخ يحمل فيه الحيَّات والعقارب بدل الهدايا الثمينة من إنقاذ عباده ورحمتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور ليبيضَّ وجهه ويُقبل عليه تعالى فينال بقربه الهناء والسرور والجنَّات العُلى، بل إنه ليحمل

الصدف دون اللآلئ والعرض بدل الجواهر، أجل هناك الحسرة والندم وهناك عض البنان، ولات ساعة مندمٍ.. لقد انقضى كل شيء، وظهرت نتائج الامتحان.

فلا يلومن الإنسان إلاَّ نفسه، لقد قُضي الأمر وانتهى كل شيء، فلا أمل ولا رجاء فما أصعب العيش بعد فقدان الأمل.

لقد خسر الكافرون أهليهم وأصحابهم وكل أنيس، وهم في شغل شاغل عما حولهم يتوارون عن الناس من لباسهم الملطخ بالرذيلة، وخسر هؤلاء أنفسهم لأنهم حرموها مما أُخفي لهم من قرة أعين، ومن مقامهم السامي.

﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝ ﴾[1].

فهؤلاء الذين فقدوا كل شيء حتى الأمل، فأي شيء يُنسيهم حالتهم التي هم فيها غير النار؟ فرحمة منه تعالى وحتى لا يتركهم في هذا الشقاء وهذا الألم وهذا الخزي يسلِّط عليهم مطلبهم من النار بالقدر الذي ينسيهم هذا الألم النفسي الشديد، فكل إنسان يكون عذابه بحسب شدة كفره وشدة إنكاره، ولذا تكون النار بمقدار ما يسكِّن عليه هذا العذاب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝ ﴾[2].

---

(١) سورة الزمر: الآية (١٥).

(٢) سورة البروج: الآية(١٠).

فلكي يخلصوا من عذاب جهنم وهو الألم النفسي الرهيب الذي يعصف بهم من شدة الخسارة وخيانة العهد يحولهم الله تعالى لعذاب آخر هو عذاب الحريق كما بالآية الكريمة وهو عذاب أقل بكثير من آلامهم الجهنمية التي لا تطاق ولا توصف.

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ ﴾[1].

يفتنون بالنار كما يفتتن المريض المتألم بالأدوية المسكنة .

«إنَّ العارَ ليلزمُ المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالكَ بي إلى النارِ أيسرُ عليَّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدَّة العذابِ» [2].

قال تعالى: **﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥ ﴾[3].**

﴿...وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾[4].

لأن هذا العلاج ـ أي النار ـ خير ما يناسبهم في حالهم النفسي المرعب هذا.

واستناداً على ما بيَّنه رسول الله ﷺ في حديثه الشريف الآنف الذكر فإن النار تصبح بمثابة مشفى للمجرمين المتألمين يطلبونها هم ليسكِّنوا آلامهم النفسية المبرحة من غير أن يُكرههم تعالى عليها :

﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ ﴾[5].

---

(١) سورة الذاريات: الآية (١٣ـ١٤).

(٢) الجامع الصغير /٢٠٧٤/ (ك) عن جابر (ح).

(٣) سورة البقرة: الآية(١٧٥).

(٤) سورة يونس: الآية(١٠).

(٥) سورة الفجر: الآية (٢٤ـ٢٦).

﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾: لقد خسر هذا المسكين حياته وأضاع عمره الثمين سدى، وانقضت تلك الفترة التي كان يستطيع أن يكتسب فيها الخيرات فيُقبل بها بوجه أبيض على خالق الكائنات وينال المكرمات فلا فائدة له من الحسرة وأنه ليندم أشد الندم، ويتقطَّع قلبه حسرة، إذ يرى أن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة غير أنه خسرها وما قدَّم لها شيئاً.

﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ ﴾: أي: أنه في ذلك اليوم لا يُعذبه أحد ذلك العذاب الذي يقع عليه، وإنما هو ذاته جرَّ العذاب لنفسه، فحسرته وخجله وأعماله الخبيثة تتراءى له فتلذعه في قرارة نفسه لذعاً لا يُطيقه ولا يستطيع أن يتحمله، ولذلك تراه يفرُّ إلى النار لينطرح فيها وليكون له من حريقها وعذابها سِترٌ عن آلامه النفسية، وما مَثَل هذا الإنسان في ذلك اليوم إلاَّ كمثل طفل نهاه والده عن لمس شفرة حادّة مرهفة فعتا عن أمر والده وخالفه فيما نهاه عنه، وجعل يبري بها قلمه ظنّاً أن تلك الشفرة خير من المبراة التي نصحه والده أن يبري بها، وفيما هو على هذا الحال أخطأت الشفرة القلم على حين غفلة منه وذهب بإصبعه، فجعل يصيح ويستغيث ويستجير بوالده ليضمِّد له جرحه ويُسعفه مما حلَّ به.

أفتظن أن ذلك العذاب الذي حلَّ به في تلك الساعة أنزله به أحد؟.

إنه لم يعذبه أحد ذلك العذاب، إنما هو وحده الذي جرَّ هذا الألم لنفسه، وما الألم الذي يشعر به ساعة التضميد والإسعاف إلاَّ مداواة.

وهذا المثال الذي قدَّمناه إنما قرَّبنا به وجه الحقيقة من الأذهان، والواقع أبلغ من ذلك بكثير؛ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً. وقد أراد تعالى أن يفصِّل لنا في وصف حالة ذلك التعيس الشقي: ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ ﴾: ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أنه في ذلك اليوم لا يَشدُّ الوثاقَ على ذلك المسكين في النار أحد، بل هو ذاته يُوثق نفسه بنفسه، إذ يصبر على ألم الحرق، ويُرغم نفسه على تحمُّل العذاب ليخلص مما هو فيه.

هذا وصف العاصي يوم القيامة وهذا وضعه في النار ولا سبيل للخلاص من ذلك الحال الجهنمي الذي يُرغمه غداً على الارتماء في نار التخفيف مما هو فيه إلاَّ التوبة الآن والرجوع للسير بالحق. فهم يفتتنون بالنار افتتاناً لشدة ما يقاسونه من آلام نفسية كما يُفتتن المريض بالأدوية المقيتة والمسكِّنات المخدِّرة والعلاجات الصعبة والعمليات الجراحية لما يأمل فيها من تسكين لآلامه المرضية الكبرى. ﴿ **يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ** ﴾[1]. ويخلدون إليها بذاتهم لأنهم يرونها خير ما يناسبهم: ﴿...**أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾[2].

فنستعيذ بالله من شرور أنفسنا حتى لا تكون مصاحبتها لزاماً.

وهكذا فنار الخجل والعار ونار الحسرة إنما تحرق قلوب أولئك الكافرين فلا تجد أنفسهم خيراً لها منها. وهم بذاتهم يخلدون إلى النار وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ويتضح لنا هذا المعنى جلياً ظاهراً إذا نحن نظرنا لحال الإنسان الآن في دنياه. فالمريض إذا اشتد المرض بعضو من أعضائه وبرح به الألم وأيقن أن لا خلاص له من علَّته إلاَّ بقطع العضو الذي ينبعث منه الألم تراه يذهب إلى الطبيب مستسلماً

---

(1) سورة الذاريات: الآية (١٣).

(2) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

له طالباً منه أن يقطع له ذلك العضو رجاء الخلاص مما هو فيه، وهو يعلم ما في ذلك القطع من شدة وألم.

فإذا كان هذا حال الإنسان في دنياه فكيف به في الآخرة وقد زالت عن نفسه بعد الموت حُجُب الشهوات ورجع إلى فطرته فطرة الكمال واستيقظت نفسه بعد سبات وتذكَّر عهده ونقْضه إيَّاه، وشاهد عظيم خسارته للجنَّات، وهوى من عظيم مكانته العليّة التي سما إليها بحمله الأمانة التي أشفقت من حمْلها الأرض والجبال والسموات وحَمَلَها ليرقى فوق الكائنات وإذا به يغيِّر ويهوي إلى أسفل سافلين وقد انقطع الأمل بالتعويض، وما أصعب العيش بعد فقدان الأمل، بل وخسر بخزيه وعاره مشاهدة وجه الله الكريم منبع العطاء والخير والجمال والكمال، عندها وقد اشتدت به الحسرات وأحرقته أعماله المخزية وبرح به الخجل ولزمه العار؟.

لا شك أنه يرتمي في النار، تنضج جلده وتشوي وجهه ويُسقى بها ماءً حميماً يقطِّع أمعاءه، وإنه ليؤْثر ذلك كله ويفضِّله على ما يلقاه من آلام نفسية لا تُطاق.

فاللهم لك الحمد في السرَّاء والضرَّاء، ولك الحمد في الشدة والرخاء، خلقت هذا الإنسان ليسعد بالنعيم في شهود جلال وجهك الكريم ويرقى في جنَّات النعيم فحاد عن ذلك ومال، وصرفته الدنيا الدنية فانحط فيها إلى أسوأ حال، فإذا جاءك غداً وقد لبست نفسُه ثوباً مخزياً من أعمالها المنحطة فإنك لا تدعه يحترق في نفسه وتسلمه إلى عذابه النفسي وأحزانه، بل ترحمه وتهديه إلى النار لتنسيه الخزي

والعار ولهيب نفسه الذي هو أشد بما لا يُقاس من لهيب النار، فلك الحمد في الأولى والآخرة ولك الحمد على كل حال.

﴿...وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾[1].

تم الدرس الثاني عشر

[1] سورة يونس: الآية (١٠).

الأسئلة:

١) هل من الأفضل أن نردَّ الإساءة لمن أساء لنا أم نعفو عنه عند مقدرتنا لذلك؟.

٢) هل بمقدور الإنسان أن يعطي الأمانة حقها دون الاستعانة بهدي الله تعالى وكتابه الكريم، وضح ذلك ؟.

٣) ما معنى قوله تعالى: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ ﴾؟.

٤) لماذا لا يستطيع المرء أن يكذب على نفسه؟.

٥) النار بمثابة مشفى يوم القيامة، فما السبب الكبير الذي يجعل من المرء المعرض العاصي أن يقبل دخول النار يوم القيامة؟.

٦) اذكر ثلاثة حجج على الأقل تدحض ظنّ الذين كفروا بأن الله سبحانه وتعالى ظالم.



الدرس الثالث عشر:

حقيقة الجنة

بعد أن علمنا حال النفس المجرمة وحقيقة تطلّبها النار يوم القيامة، وأنها بمنزلة مشفى يُعالج بها أولو الأمراض والأعمال السيئة، لا بد لنا من درس مهم نتكلم فيه عن حقيقة الجنة، فما هي الحنة التي وعد الرحمن عباده بها؟.

مفهوم الجنة

ليس المُراد من كلمة **(الجنة)** قاصراً على ذلك النعيم المادي، وليس نعيم الإنسان في الجنة قاصراً على التمتع بذلك المكان الجميل ذي الأشجار الوارفة والأنهار الجارية والفواكه المختلفة والظلال المديدة. فإنَّ هذه الأشياء وما شاكلها من الأشياء المادية لا تجعل من الجنة جنة ما لم يكن الإنسان إلى جانبها في سعادة نفسية وسرور معنوي، وإنه لا بدَّ لمن يُقيم في مكان جميل اجتمعت فيه صنوف المسرات من أن يكون مسروراً في داخلية نفسه حتى يشعر بالسعادة ويجد نفسه في جنة.

فقد يُقيم طالبان في مكان جميل لم ترَ العين مثله، وفيما هما جالسان يبلغ الأول نبأ نجاحه في فحصه وصدور قرار تعيينه في وظيفةٍ من الوظائف العالية، وأزف موعد فحص الآخر وتأخرت عليه وسيلة النقل التي تصل به إلى مكان الفحص، تُرى هل يكون حال الثاني كحال الأول؟.

لا ريب أنَّ ذلك المكان يكون على الأول جنة لما يُخالط قلبه من السرور الداخلي، كما يكون على الثاني جهنماً لما يُساوره من القلق والاضطراب.

وإذاً فالجنة مأخوذة من كلمة **(جَنَّ)** بمعنى: ستر وأخفى، وهي في حقيقتها ذلك الشعور الداخلي الجميل المستور عن الآخرين، يشعر وينعم به صاحبه ولا يطَّلع عليه أحد من الناس، ويُشير إلى هذا المعنى ما جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قِيلَ وما رياض الجنَّة؟ قال مجالِسُ الذِكر»**[1]. وقوله ﷺ: **«ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنَّة ومنبري على حوضي»**[2].

فقد عبَّر ﷺ عن ذلك المكان الذي بين منبره وقبره الشريف بأنه روضة من رياض الجنة لما يجده المؤمن الجالس في ذلك المكان بسبب ارتباط نفسه بنفس رسول الله وإقبالها بمعيَّته الشريفة على الله من النعيم النفسي والحياة بالقرب من الله، وكذا الأمر في حِلَق الذكر، وكذلك المؤمن في الدار الآخرة، تجده في جنة بسبب ما يجده من النعيم النفسي العظيم بقربه من خالقه، وإنه لينتقل في منازل القُرب الإلَهي، في جنَّات، فمن حالٍ إلى حال أعلى ومن نعيم إلى نعيم أسمى. وبما أنَّ الكمال الإلَهي ليس له حد ولا انتهاء، فليس للجنة ولا لنعيم أهلها فيها حد ولا انتهاء. ويرافق ذلك النعيم النفسي نعيم مادي مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من فواكه وثمرات وأنهار جارية من الخيرات، ويتزايد هذا السرور المادي بنسبة متوافقة مع تزايد ذلك النعيم المعنوي لحظةً فلحظة وآناً فآناً، وإلى ذلك يُشير قوله تعالى:

﴿..كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا..﴾[3].

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسَّنه ج١٣ ص٤٤.

(٢) متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله زيد (مسلم ج٢ ص١٠١٠ ح ٥٠٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٥).

فهو متشابه مع سابقه في شكله مختلف عنه في ازدياد صاحبه تنعماً من حيث مرآه وطعمه، وليس لفضل الله كما ذكرنا حدٌّ ولا انتهاءٌ. ونعود بعد أن قدَّمنا ما قدَّمناه عن الجنة إلى الاستشهاد بقصة سيدنا آدم عليه السلام فنقول:

لقد أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن يسكن وزوجه الجنة فينعم بالقرب من خالقه ويتمتَّع بشهود الجمال والكمال الإلٓهي ويستغرق به، وأَمَرَهُ إلى جانب ذلك أن يأكل وزوجه من الجنة رغداً.

ولكن ما هي حقيقة هذا الأكل، وكيف يأكل أهل الجنة في الجنة؟

أقول: لا بدَّ لبيان هذه النقطة من أن نقدِّم كلمة نذكركم بها بالدروس الماضية حول الإنسان وعناصره التي يتركَّب منها ويقوم عليها وجوده فنقول:

الإنسان مركَّب من نفس وجسد وروح. **فالنفس:** هي ذات الإنسان المعنوية الشاعرة والمدركة، فهي التي تسر وتفرح، وهي التي تتكدَّر وتحزن وهي التي تبكي وتتألم، وهي التي تضحك وتتنعَّم، فإذا وقف أحدنا مثلاً فجأةً لأول مرة أمام بحر عظيم تجد قلبه يمتلئ رهبةً وجلالاً، وإذا شاهد جريحاً متألماً تجد قلبه يذوب عليه حسرةً، وإذا سمعنا بنجاحنا في فحص أو أمر مهم فإننا نطير فرحاً، والحقيقة أنَّ نفوسنا هي التي ترهب وتجل، وهي التي تتألم وتتحسر، وهي التي تفرح وتُسر، وهي التي ترغب وتشغف وتُحب، وإن شئت فقل نفوسنا هي التي تتجه إلى الخالق فتُصلِّي له وتركع وتسجد. وتُسبِّح وتُمجِّد، وتشكر وتحمد، وتتوب إليه وتُعاهده. وما هذه الجوارح والحواس إلاَّ نوافذ تطَّلع منها النفس على العالم الخارجي، أمَّا هي فمستقرة في الصدر وأشعتها سارية في الأعصاب المنتشرة في سائر أنحاء الجسم. فهي تُشاهد الأشياء من نوافذ العينين وتتلقف الأخبار وتسمعها عن طريق الأذنين، كما

تتذوق الأشياء وتتعرف إلى طعومها بواسطة اللسان، وتلمسها بواسطة الجلد، وهي والحالة هذه حبيسة في هذا الجسم والجسم خادم لها وآلة بين يديها.

أمَّا الروح: فهي ذلك النور الإلٓهي الذي يسري في الجسم وفي مجاري الدم عظيمها ودقيقها فيبعث في الجسم الحرارة ويؤمِّن فيه الحياة والنماء. فبالروح قوام الجسم وبقاء وجوده، وبها استمرار حياته، فإن هي انسحبت منه خمد الجسم وبطلت فيه الحركة وفُقِدَت منه الحياة. والروح كما رأينا شيء والنفس شيء آخر، والروح والجسم معاً خادمان لهذه النفس يُساعدانها على القيام بما تتطلبه من الأعمال.

هذا هو حال الإنسان في دنياه، النفس في قفص الجسد، والروح تبعث في الجسم الحياة، **والجسم** محيط بالنفس كما يُحيط القفص بالعصفور وكما تُحيط زجاجة المصباح الكهربائي بالشعلة من كل الجهات.

أمَّا حال الإنسان في الجنة فعلى العكس: فنفس الإنسان في الجنة هي المحيطة بالجسد وإن شئت فقل: في الجنة تلبس النفس الجسد وتُحيط به من كل جهاته، فهي ثوبه ونورها محيط به كما يُحيط لهب الشمعة بالفتيل. فإذا كان الفتيل هو الجسم فاللهب والشعلة هي النفس. وسنعود بعد الموت للحال الذي كنا به أنفساً وللوضع الذي كان به أبونا آدم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿..**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴿٢٩﴾﴾[1].

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ حال الإنسان في الجنة مختلف كل الاختلاف عن حاله في هذه الحياة الدنيا التي نحياها الآن، وإذا كانت نفس الإنسان في هذه الحياة الدنيوية تتذوَّق الأشياء بواسطة الفم وعن طريق اللسان، وتشاهد من وراء حجاب ولا ترى إلاَّ

[1] سورة الأعراف: الآية(٢٩).

خيالها وصورها بواسطة العين، وتسمع الأصوات بواسطة الأذن فلا تدرك إلاَّ صدى الصوت، ففي الجنة حالها بعكس ذلك كله. فهي لا تتذوَّق بواسطة اللسان ذلك العضو الصغير، ولا تشاهد بواسطة العين كما لا تسمع بواسطة الأذن.

وبما أنَّها تلبس الجسد يومئذٍ وتُحيط به فهي تتذوَّق بكلِّيتها وكلها ذوق، وتشاهد بكلِّيتها وكلها عيون، وكلها سمع وكلها شعور، تذوق وتسمع وتنطق وترى بكلِّيتها بصورة مباشرة دون وساطة عضو من الأعضاء، ويكون ذوقها والحالة هذه عظيماً وشهودها واسعاً، ونعيمها تاماً.

وإذا كان الإنسان في حاله الدنيوي يشبع ولا يعود يجد لذة الطعام بعد تناوله كمية محدودة منه، فالإنسان في الجنة لا يشبع ولا يملّ من شيء كما لا يجوع ولا يعطش، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾** ﴾[1].

ذلك لأنَّ أشعة النفس بذاتها تسري في الجنة إلى الأشياء وتُخالطها كما تسري أشعة الشمس إلى أعماق الماء فترتوي ريّاً متواصلاً، كما تمتد إلى الفاكهة والأطعمة، وكلها يومئذٍ ألسنة فتذوق ذوقاً متتالياً، وتنعم نعيماً متزايداً دون أن تشعر بثقل أو ملل أو شبع، فنعيمها دوماً في ازدياد لا يُنغِّصها منغِّص. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا..** ﴾[2].

إن أنفس أهل الجنَّة تلبس أجسادها، ولما هبطنا للحال الذي نحن عليه أصبحت أنفسنا محصورة في القفص الجسدي، لذا فإننا نتطلَّع إلى العالم من خلال الكوى

---

(١) سورة طه: الآية (١١٨ـ ١١٩).

(٢) سورة الرعد: الآية (٣٥).

المفتوحة لنا كالعينين والأذنين والفم والأنف، كما أشرنا سابقاً فالنفس تشاهد وتذوق وتلمس من وراء حجاب، (أي الجسم).

أما في الآخرة فتنعكس الحالة وتصبح النفس كما ذكرنا لابسة للجسم.

أما هيكل النفس وشكلها المرئي فيبقى مشابهاً للثوب الجسدي الذي كان عليه المرء في الدنيا، ولكن هذا الهيكل النفسي ليس مادِّياً.

وبما أن نفس المؤمن مغمورة بالتجلِّي الإلٓهي مباشرة، لذلك يصبح جماله متناسباً مع علو منزلته، لأنه بالحقيقة أصبح الجمال جمال النفس، وليس جمال هذا الهيكل المادي كما هو متعارف عليه في الحياة الدنيا.

إنَّ النفس في الجنَّة تتحرَّر من سلطان الجسم الذي كانت محبوسة فيه في الحياة الدنيا، ولذا وحينما تنعتق منه في الآخرة تغدو حرة طليقة، فلا يُقيدها زمان ولا مكان. ﴿..وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾[1].

إن الإنسان عندما ينام تتحرَّر نفسه، تذهب وتجيء، وتحب وتكره، وتخاف وتتكلَّم، ومع ذلك فإن جسده ملقى على الفراش.

كما أن الإنسان لا يتذكَّر في حالة نومه شيئاً، فقد يرى نفسه في موضع، وإذا هو في موضع آخر، دون أن يستطيع الربط بين هذين الموضعين، أو يجد علاقة تربط المكان بالزمان، ذلك لأن نفس النائم تتحرَّر من سيطرة الفكر وسلطانه، فلا تعقل إلاَّ ما تشاهده، ولا تعقل إلاَّ المكان الذي تحلُّ فيه.

أما سبب ذلك فهو توقف جهاز الفكر أو آلية الدماغ عن العمل.

---

[1] سورة الحج: الآية (٢٣).

وفي الآخرة فإن الفكر يتعطَّل لعدم الحاجة إليه، ولا يبقى إلاَّ عقل المرء، والعقل من صفات النفس، وبما أن النفس هي ذات الإنسان الشاعرة الخالدة، فإن ما عقله في الدنيا من خير أو شر، يظلُّ مطبوعاً بها أبداً.

فإمَّا أن يُسرَّ الإنسان بما عقله ويصبح وجهه مبيضّاً، وعليه يتم العطاء الأبدي، والحياة النورانية المتنامية، وإمَّا أن يخزى به فيسودُّ وجهه وينحجب عن نعيم التجلِّي الإلَهي، وبالتالي ينحجب عن الحق.

هذا وبما أنَّ الآخرة لا يوجد فيها إلاَّ الحقائق، وبما أن هذه الحقائق لا تُرى إلاَّ بنور الله، فإن المنحجب عن هذا النور يظل في عمى عنها.

وقال أصدق القائلين: ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾** ﴾[1].

وعلى هذا الأساس، فكلُّ شيء كنَّا نراه في الحياة الدنيا يتبدَّل أو يرجع إلى حالته الأصلية، فلا الأرض هي الأرض، ولا الأنهار أنهار ولا الأساور ولا الذهب ولا الفضة ولا الأرائك، ولا غيرها يبقى على حاله الذي كان عليه في الحياة الدنيا، لأن الوظائف التي كانت تقوم بها قد تبدَّلت، قال تعالى: ﴿ **يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾** ﴾[2].

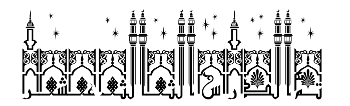
وما هذه الأشياء التي ذكرها تعالى عن الجنة في كتابه الكريم إلاَّ أسماء لمسميات تختلف عن الأشياء التي كنا نراها في الحياة الدنيا، لأن حقائقها متشابهة لكنها أجمل

[1] سورة الإسراء: الآية (٧٢).

[2] سورة إبراهيم: الآية(٤٨).

بكثير وأرفع وأرقُّ وأحلى، ولذا فلا عجب أن أصبح الإنسان في الآخرة أعمى، لأنه كان في الدنيا أعمى عن الحقيقة لا يرى إلاَّ صوراً، وهذه الصور التي كان يراها في الدنيا قد عادت إلى حقائقها، وبما أن نفسه لم تعقل في الحياة الدنيا إلاَّ تلك الصور، وبما أنه في الآخرة ليس له نور ليرى حقائقها، فإنه يظل كما كان في الدنيا أعمى عن الحقائق، ذلك لأنه لم يسعَ لينال نوراً من ربِّه بدنياه، بل حجبته شهواته، وبالآخرة تزول الصور وتبقى الحقائق: ﴿..وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾[1] يهتدي به في حياته لأعماله، فهو أعمى لا يرى من الدنيا إلا زينتها وزخارفها، لم تستنر نفسه بصحبة رسول الله ﷺ. ﴿..فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾[2].

إن كلَّ نفس كما ألمحنا تحيط بجسدها يوم القيامة، مضافاً إليه جمال النفس المغمورة بالكمال الإلٓهي، أو بقبحها إذا كان من أصحاب الجحيم. ولذا فإن مقياس الجمال يصبح بهيئة النفس اللابسة للجسد، بعكس ما كانت عليه في الحياة الدنيا.



(1) سورة النور: الآية (٤٠).
(2) سورة الحج: الآية (٤٦).

الأسئلة:

١) هل يكفي أن يوجد الإنسان بالمكان الجميل، ذي الأشجار الوارفة والأنهار الجارية والفواكه المختلفة والظلال المديدة، ليكون في الجنة وضِّح السبب؟.

٢) لماذا يشعر المؤمن وهو عند ضريح رسول الله الكريم ﷺ أنه بالجنة؟.

٣) ما معنى قوله تعالى عن أهل الجنة ﴿..وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾[1]؟.

٤) ما هو الحال أو الوضع الذي سنعود إليه بعد مفارقتنا الحياة؟.

٥) يوم القيامة كله حقائق، ولا صور ولا زيف هناك، فماذا سيكون حال الإنسان إذا عاد إلى ربه وهو أعمى، ولم يتعرف في دنياه إلا على الصور؟.



[1] سورة الحج: الآية (٢٣).

الفصل الرابع

١) فعالية الفكر في توجيه النفس. قصة واقعية...
(الحرب النفسية).

٢) القانون الثابت لسعادة النفس.

٣) طريق الإيمان بالله تعالى.

٤) طريق الإيمان بالله ورسوله الكريم.



الدرس الرابع عشر:

فعالية الفكر في توجيه النفس
(الحرب النفسية)

في هذه القصة الواقعية سنرى الفائدة الكبرى التي يجنيها المؤمن من خلال تفكيره الذي وهبه الله تعالى له ... وكيف يمكن للحرب النفسية أن تجدي وتؤتي ثمارها.

عرض موجز:

بعد فترة من تسليم الضابط محمد أمين الثوار السوريين باخرة السلاح المصدرة من فرنسا لقواتها العاملة في بلاد الشام أثناء تسنّمه منصب قلعة عنجر بخطة عبقرية وكفاية ربانيّة وحرمان الجيش الفرنسي منها، بدأت الإشاعات تترى وتصل إلى مسامع القادة الفرنسيين الذين غدوا بنقص كبير من السلاح والعتاد، وحلَّ الوهن والضعف في عزيمتهم، كانت الشائعات تفيد أن قادة الثورة أصدروا قرارهم باغتنام الفرصة والقيام بهجوم عام وشامل، فيجمعوا جموعهم وينضموا من كافة مدن سوريا وقراها بهجوم كاسح وحاسم على الجيش الفرنسي وقيادته الحربية في عاصمة البلاد دمشق، وأن عشرة آلاف مقاتل من الثوار مسلحين بأسلحة الفرنسيين التي استولوا عليها من قلعة مجدل عنجر قد عقدوا العزم على ذلك.

سرت هذه الإشاعة سريان اللهب في الهشيم، عندها أصدر المندوب السامي الفرنسي الجنرال سراي بوصفه القائد العام أمره بإرسال طليعة جيش قتالية من ثلاثة آلاف خيَّال مسلح ليكتشفوا حقاً قدوم العشرة آلاف مهاجم من ثوار سوريا الأعداء، شرط أن تكون هذه الطليعة من الجيش الفرنسي المختلط، أي: (جنود

سنغال ومغاربة وشراكس ودرك سوريين) ولخوف الجنرال سراي لم يضحِّ بإرسال جنود فرنسيين مع الطليعة القتالية خوفاً على أرواحهم.

اذهب أنت وربك فقاتلا

بعد هذا العرض العام السريع وانطلاق الطليعة القتالية للكشف والعودة بالنبأ اليقين، جرت أحداث هذه الواقعة.

أثناء المسير القتالي التفت الضابط محمد أمين شيخو فبدا على مُحيَّاه ظلٌّ وارف من التفكير العميق وطغى على قسمات وجهه سحابٌ مركوم من تأمُّل ثاقب دقيق، والتمعت في عينيه نظرة صدق عميق وتصميم لا يعرف الأفول، استغراق مهيب امتص كل ذرَّات نفسه، اعتصر فيضاً كبيراً من الرحمة الإنسانية الكبرى، فنامت على جبينه العريض الناصع تجعيدات تنبئ عن استرسالٍ وسبْحٍ واسع، يقارنه عزيمة تتخطى الزمن وتسبق الأحداث وترسم على صفحات التاريخ خطوط فجر تليد أغر.

بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى وخروجهم من بلاد الشام فرضت فرنسا نفسها كقوة احتلال لسورية، وبتلك الأثناء احتاجت لخدمات من كانوا في سلك الشرطة في العهد العثماني ليعودوا لضبط الأمن، فكان من جملة من أعادت توظيفهم الضابط محمد أمين شيخو أعادته ضابطاً للأمن كما كان في العهد العثماني ... وهنا في هذه القصة عينته معاوناً لقائد الحملة الاستطلاعية الكبيرة للقضاء على الثوار ... فماذا سيفعل يا ترى.؟.



كان هناك جندي تفضحه تنهداته، وتكشف عما يتفاعل في صدره زفراته، تتعثر أنفاسه وتضطرب أمارات وجهه يدنو منه، اقترب ملهوفاً... سيدي... سيدي أريد إجازة: انتبه السيد محمد أمين من استغراقه ولم يصدِّق ما تسمعه أذناه... إجازة!.

نحن نسير إلى القتال وأنت تريد إجازة هل جُننت؟. انصرفْ... فانصرف وعاد إلى أفكاره. كان هذا الجندي يرى في قائده كلَّ معاني البطولة والرجولة والإنسانية لذلك أحبَّه ووثقَ به وما هي إلاَّ برهة حتى كرَّ عائداً إليه على متن فرسه من جديد:

سيدي أتوسل إليك دعني أذهب الآن وفي الصباح ألتحق بكم فأنا أعرف الموقع الذي فيه تتمركزون في نهاية غوطة دمشق "وجعل يصفه له".. وأعدك بكل ما لديَّ من شرف بأنني لن أُخلف أبداً.

فأجابه: أيها المجنون... إن طلبك الإجازة يعني أنك جبان خائف من الموت وإذا أجبت طلبك فإني أمنح إجازة من الموت، وإذا نما الخبر إلى قيادة الجيش فلا بد وأنهم سيتهموني بالخيانة العظمى وأُعدم معك.

قال له: سيدي أسألك بكل ما في قلبك من رحمة وأستجير بنخوتك وشهامتك، فإني وكما لا يخفى عليك غريب عن هذه الديار النائية، فلا أهل ولا أصدقاء، وزوجتي قد داهمها المخاضُ وهي بين أمواج الألم وعادةً تتعسَّر ولادتها فمن لها؟.

ردَّ عليه: أيها الجندي قلت لك انصرف فلا أنا أستطيع ولا أحد غيري يقدر على تلبية طلبك.

ذهب الجندي وعيناه تزوغان وقلبه يتحرَّق ولكنه ما لبث أن عاد إلى موئله وسنده وغوثه وقبل أن يَصِلِ أشرقت الفكرة والتمعت في ذاكرة ضابطنا السيد محمد أمين فغزا سرورٌ طغى على طلعته وانثال من مقلتيه شلالٌ من العرفان لله لا يُوصف.

وما أن اقترب الجنديُّ منه حتى غمز له بعينه فهمز كل منهما جواده وسارا جنباً إلى جنب مبتعدين عن مسار الحملة عن جيش الاستطلاع المختلط وعن عيون الرقباء:

أيها المسكين قد تأثَّرت لحالتك وأشفقت مما أنت فيه من قلقٍ وحيرة لذلك قرَّرت منحك إجازة مديدة تذهب إلى زوجتك التي تناديك وقد تكون الدموع في عينيها فلا سند ولا معين والخطر محدق بها، ولا تقطع إجازتك حتى أُرسل في طلبك ولكنَّ هذا الأمر يتطلَّب منك تنفيذ مهمَّةٍ أكلِّفك بها.

فردَّ عليه وصوته يقطر لهفةً: مُرني يا سيدي وستجدني أطوع لك من بَنانِك.

هنا قال له: بعد قليل سوف نصل إلى الموقع الذي سيكون قاعدة انطلاقٍ استطلاعية وأنت تعرفه جيداً ومضى يشرح له تفاصيل المهمة والجندي ينصت باهتمام بالغ، وحين أنهى ضابطنا حديثه من شرْح الخطَّة سأله:

ولكن ما المهمة التي تأمرني بتنفيذها؟.

قال له: أقول لك حينما أُرسل في طلبك...

لقد ظنَّ أنه يريده لأمر شخصي فتركه على ظنه وصرفه قائلاً: والآن اذهب والتحق بفصيلتك.

هرول الجندي والدنيا لا تكاد تتَّسعُ لسروره ودموعُ الفرح تملأ عينيه.

❖❖❖

كان ضابطنا السيد محمد أمين نائباً لقائد طليعة الجيش الفرنسي الاستطلاعية ولولا خشية قيادة الجيش لسلَّمته القيادة، فلقد رأوْا من عبقريته وفنونه ما أذهلهم وزرع الحيرة في أفئدتهم وتركهم يغرقون في خضمٍ لجيٍ من الدهشة والإعجاب فلا يزال في ذاكرتهم أنه كان الضابط المسؤول في قضية الاستيلاء على أسلحة

قلعة "عنجر"، ولكن كانت هذه كلَّها ظنون لديهم لم ترقَ إلى مستوى اليقين، لذلك جعلوا منه نائباً للقائد لا قائداً تحسُّباً وحيطة.

وحينما انطلق النفير سارت الطليعة وسار السيد محمد أمين في ركابها، كانت ابتسامة الظفر والرضا ترتسم على ثغره، وفي جوانحه حمدٌ لا مزيد عليه وحبٌّ طاغٍ عصف بنفسه وجعله يهيمُ بالإلٓه العظيم الذي هيَّأ له الظروف المواتية ليُكتب لخطَّته النجاح إن شاء الله ومن ثم الخلود.

لقد نفد صبر فرنسا وضجَّت من مناوشات الثوَّار لقواتها وأقضَّتْ مضجعها ضرباتهم فلم يغمض لها جفن ولم يستكن لها ساعد ولا ذراع، فحشدت تلك الحملة حتى بلغت طليعتها "ثلاثة آلاف جندي" مدجَّجين بأحدث صنوف السلاح تبغي إبادة الثوَّار عن بكرة أبيهم بعد كشف وتحديد مكانهم وعددهم.

طار نبأ هذه الحملة الاستطلاعية إلى كلِّ الأوساط فانتاب الرأي العام وجومٌ وحيرة وقلق، فما كان من قادة الثورة إلاَّ أن هرعوا إلى من يُستظل بظلِّه فيُظلهم، إلى من يلتجؤون إليه فيكون نِعمَ الحصن وخيرَ حرزٍ أمين.

وهكذا كلّ مرة كان يرى منهم العجب العجاب: فكم ألقى بنفسه في أتون النار، وكم استهان بروحه ولم يبالِ بجسمه وهم دوماً يخذلونه ويتركونه وحيداً يجابه مصيره فتتدخَّل في الوقت المناسب العناية الإلٓهية وتسعفه فينقلب الفشل إلى نجاحٍ منقطع النظير، لكن هذه المرة الأمر جدُّ مختلف والفناء قابَ قوسين أو أدنى ولم يكن في وِسْعهم إلاَّ الالتجاء إليه فبذلوا له العهود وأقسموا الأيْمان أن يكونوا عند حسن ظنِّ ربهم وظنِّه فيهم فوعدهم: إن مكَّنني الله فلن أقصِّر، ولكنني لست القائد فَكِلوا الأمر لله.

نظر قائد الحملة الاستطلاعية إلى معاونه السيد محمد أمين نظرة حملت من الثقة أكثر مما تحمل من الإعجاب فقد عَلِمَ من درايته وحنكته وخططه ما جعله يسلِّمه قيادَه، لا بل ويتكئ على عبقريته بالكلية فلا يقطعُ أمراً ولا يحرِّكُ ساكناً إلاَّ من بعد الرجوع إليه لذلك انتابه القلق والانزعاج عندما تطرَّف ضابطنا عن طريق مسير الجيش مع أحد عناصره لكنه سرعان ما أقبل راجعاً واقترب منه "وعلى مسمع من الجنود" قال بصوت مرتفع سَمِعَهُ الجنود حولهم وعلامات الألم تكسو وجهه:

إني ليأخذني العجبُ العجاب ويقتلني القلق فقد بحثت في المنطقة وسألت الرعاة واستجوبتهم حين تطرَّفتُ جانباً للبحث العملي والتقصِّي لدراسة القتال على أرض المعركة القادمة فعلمت بأنَّ الثوَّار قد تنادْوا من كل حدب وصوب فمن حلب وإدلب وحمص وحماة وجبل العرب وحشدوا حشوداً ضخمة وبلغ تعدادهم عشرة آلاف ثائر وما زال العدد بازدياد فالإشاعات التي بلغت أسماع الحكومة هي الحقيقة اليقينية وليست مجرَّد إشاعات، وكلّهم زحفوا تلقاء دمشق ولست أدري كيف يرسلون بهذا العدد الضئيل، أما كان من المفروض كدولة ضدَّ عصابة ثوارٍ أن يكون عديدنا ثلاثة أمثالهم لئلا يُحاط بنا، ألا ترى أنه لا يوجد معنا فرنسي واحد ولكن ليس بيدنا حيلة فقد فُرض علينا القتال ولا بد أن نقاتل وأن ننتصر، والحقيقة لن تكون هذه الطليعة مجرَّد استطلاعية، بل قتالية.

شخصت عينا القائد وامتقع وجهه وانتصب شعر رأسه فمن يعتمد على حنكته هو الذي يتكلَّم.

سرى الخبر بين الجنود سريان النار في الهشيم ووصلت الحملة إلى الموقع المراد وجرى الجنود لإعداده للتعسكر فنصبوا الخيام وجهَّزوها وجعلوا خيمة القائد إلى

جوار خيمة معاونه وبينهما ممرٌّ عريض يقسم المعسكر شطرين وتركوا أسلحتهم في وسط المعسكر تستند على بعضها على أشكال هرمية ليسهل تناولها.

أسرع القائد خلف ضابطنا السيد محمد أمين عندما ولج إلى خيمته وقال له:

ماذا ستفعل الآن؟. وما الخطّة القتالية؟.

فردَّ عليه: أنا متعب، بل مرهق جداً وأريد أن أنام ساعتين على الأقل لأنفض عن كاهلي هذا العناء، وبعدها نخطِّط فأمامنا مجهودٌ كبير وهل تظن أن يغمض لنا جفن الليلة والثوَّار على مقربة منَّا؟!.

فقال القائد مستغرباً: وهل يطرق النوم لك جفناً في هذه الظروف العصيبة؟.

قال له: نعم ولِمَ لا، واستلقى على سريره العسكري وأغمض عينيه.

أخرج القائد زجاجة خمر وراح يعبُّ منها حتى أتى على آخرها ورماها بنَزَقٍ وعصبية والرعب يأخذ منه كلَّ مأخذ وهو لا يفتأ يذرع الأرض أمام خيمة الضابط السيد محمد أمين جيئة وذهاباً: عند ذلك ابتهج قلب ضابطنا فرحاً وأملاً وسروراً.

❖❖❖

في هذه الأثناء انفرد ذلك الجندي وهو يمتطي جواده وسار الهويْنا باتجاه التلَّة التي يقْبعُ المعسكر خلفها ولما وصل إلى قمتها ما لبث أن لوى عنان جواده بسرعةٍ رهيبة وانقضَّ كالسهم هبوطاً جهة المعسكر فثار الغبار حتى طاول السحاب وعلا صهيل الجواد وسمع الجنود وقع حوافره تدقُّ الأرض وكأنما تنذر بخطر يوشك أن يقع.

شخصت الأبصار ويبست الحركة وأقبل الجندي يلوِّحُ بكلتا يديه يملأ الذعرُ وجهه ويسكن الوجل في عينيه وهو يصرخ بصوتٍ متحشرج كحشرجة نزاع الموت وأثناء عبوره الممر الفاصل بين خيمة القائد ومعاونه بذلك الصوت الراعد يملأ النفوس هلعاً ورعباً فتوضَّحت الكلمات:

(انذبحنا يا عرب... انذبحنا يا عرب... انذبحنا يا عرب).

وظلَّ هارباً لا يلوي على أحد ورنين صوته المرعب تُرجع البراري صداهُ.

جفل قائد الحملة وجحظت عيناه وبدا تأثير الخمر عليه واضحاً، نظر إلى ضابطنا "رجلَ الساعة المنتَظر" فإذا به يندفع من خيمته ويقفز مُعتلياً صهوة حصانه ويرخي لها العنان هارباً فانطلقت تسابق الريح وتطوي الزمن، تعلَّقت عيون الجنود بقائدهم... فما كان من الآخر وقد أخذ منه الخمرُ والفزعُ مأخذهما إلا أن أسرع بامتطاء حصانه وهمزه بعنف يحثُّه على الفرار وهو غير مصدِّق بالنجاة.

ساد سكون مشوب بذعر قاتل وجحظت الأعين رعباً وهلعاً ماذا!.

أما وقد فرَّ القائد ومعاونه فماذا على الجنود إلاَّ الفرار، فجأة كثر الهرج والمرج حتى بدا منظرهم كأنهم قطيع من الغنم فرّ من بطشة الأسد.

ولّى الجيش بأكمله الأدبار جنوداً وضباطاً ولاذوا بالفرار..

كأنهم هَرباً أبطالُ أبرهةٍ[1] أو عسكر بالحصى من راحتيه رُمي[2]

حقّاً لقد أدّى ذلك الجندي دوْره ببراعةٍ لا مثيل لها فلقد كان تصوُّره عن منظر زوجته التي تئنُّ تحت وطأةِ المخاض ولا أحد إلى جوارها وربما خُيِّل إليه أن حياة زوجته المسكينة في خطرٍ محدق وأنه إن لم يدركها الآن فسوف يخسرها إلى الأبد، فكان المشهدُ قطعةً من الحقيقة.

---

(1) تشبيه بهرب أصحاب الفيل حينما أُرسلت عليهم الطيور الضعيفة وهم فارّين منها لا يلوون على شيء .

(2) يشبّه فرار طليعة الجيش الفرنسي المختلط بوقعة حنين حينما رمى الرسول ﷺ جيش العدو بالتراب وأصابت كل عين وولّى الجيش مدبراً ولم يُعقب .

ما برح ضابطنا السيد محمد أمين معاون القائد العام ينهب الأرض بفرسه نهباً ثم بدأ ينحرف عن خط سير الفلول الهاربة قليلاً قليلاً، وعندما صار بعيداً منفرداً وفي مأمن من أنظارهم رجع عائداً الكرَّة إلى مكان المعسكر فوجد السكينة تغمر المكان والهدوء يلقي ظلاله على الأوابد والخيام، والخيام تشكو فراق ساكنيها، طاف حولها وجاس بناظريه جوفها فرآها خاوية على عروشها وفي الساحة كان جبل الأسلحة ملقىً على الأرض، لقد تركوا كل شيء وراءهم إلا النجاة.

بحث عن الهاتف المِيْداني ولما عثر عليه أدار الساعد عدَّة دورات، ثم أمسك بالسماعة وطلب القيادة فألغيت المكالمات وخلت الخطوط فأخبار الجبهة لها الأفضلية والأولوية وما هي إلا هنيهة حتى كان الضابط المترجم على الطرف الآخر ينقل الحديث إلى قائد الجيش الفرنسي، وعلى الفور بادره بالسؤال بلهفة ما الأخبار عندكم؟.

قال له ضابطنا: مع الأسف سيئة للغاية ونحن في وضع لا نحسد عليه أبداً، فالثوَّار يُطبقون علينا من كل ناحية وينوف عددهم على عشرة آلاف وهم في كل ثانية يزيدون كأنما ينبعون من الأرض نبعاً وننفِّذ الآن عملية انسحاب منظَّم لنتفادى التفاف الثوَّار علينا وحتى نخرج بأقل ما يمكن من الخسائر.

فسأله: وأنت كيف استطعت البقاء وأنت تكلِّمني؟.

فأجابه: إن فرسي سبَّاقة.

وكانت بيده موس مرهفة وبسرعة البرق جزَّ بها سلك الهاتف الذي لفظ أنفاسه وبقي القائد المترجم ينادي بصوت يكدُّه الفزع:

آلو... آلو... آلو.. وما من مجيب.

وعندما وصلتْ إلى دمشق فلولُ المنهزمين بدأ كل منهم يروي الواقعة كما يخيِّل له فزعه ورعبه أحداثاً مليئة بقسوة وعنف تعيا على الاصطبار والقسم الأكبر منهم لم يلتحق بالثكنات لأنهم أيقنوا بزوال الاحتلال الفرنسي عن البلاد باجتياح الثوَّار الطامي، وشعروا أن الفرار خير من الموت المحتم فاعتُبروا في عداد القتلى.

لقد انقصم ظهر فرنسا وتقوَّضت أركان سلطتها وأصبحت كالمسنِّ الهرم.

نظر الجنرال سراي "المندوب السامي الفرنسي في سورية" إلى الإفادات والتقارير الواردة إليه فهاله الأمر كثيراً وشعر بالمرارة تغزو حلقه وبالقنوط يعتصر فؤاده وبصفرة الوجل تصبغ وجهه، فقد ذهب في موقعةٍ أكثر جنده والثوَّار يتقدَّمون بأعداد رهيبة نحو دمشق وفي سواعدهم عزيمة وفي مُقلِهم تصميم أكيد ومن جباههم تتفجر إرادة لا تعرف النكوص، وكانت هذه خلاصة تقارير المعركة فانسدَّتِ السبل أمام عينيه وأظلم النهار من حوله وضاقت عليه الأرض بما رحُبت لا سيَّما وقبل فترة يسيرة كان الثوَّار قد استولوا على باخرة أسلحة وذخائر مرسلة للجيش الفرنسي بسورية من قلعة "عنجر"، فما كان منه إلا أن التفت إلى معاونيه وأركان حربه وصرخ بمرارة وصوت رهيب:

انسحبوا... انسحبوا..

انسحبت القوات الفرنسية إلى لبنان تاركة وراءها كلَّ شيء... الثكنات، مستودعات السلاح الثقيل والذخيرة.. نقاط الاستناد... المدافع الحاكمة على مفارق الطرق والقذائف إلى جوارها... والبنادق هنا وهناك. لقد فرُّوا بأرواحهم طلباً للنجاة وهم يغبطون أنفسهم بها.

ولكن الجنرال سراي عندما وصل إلى بيروت خشي أن تصل عدوى المقاومة إليها فيجمع الثوار اللبنانيون على الالتفاف عليهم فيستنزف الأهالي قواهم فيصبح من الهالكين، فآثر اللجوء إلى إحدى البوارج الحربية الفرنسية التي تقبع في البحر المتوسط، ينتظر ما تتمخَّض عنه الأحداث وهكذا بقيت سورية خلواً من المغتصبين والأعداء تنتظر الشرفاء أن يأخذوا زمام المبادرة وينتهزوا الفرصة ويغسلوا العار ويزيلوا الضيْم ولكن...

طال المنامُ على الهوان — فأين زمجرة الأسود

واستنصرت عصب البغاة — ونحن في ذل العبيد

قيد العبيد من الخنوع — وليس من زرد الحديد

لقد انكشفت النيَّة وبانت الطوية.. أوَ ليس هذا ما طلبتم؟.

أوَ ليس هذا ما تريدون؟.

لقد رضي أن يذهب مع ربِّه فيقاتلا وما عليكم بعد هذا الفتح المبين سوى استلام الثكنات التي يصفر الهواء فيها والعتاد الذي علاهُ الغبار.

لكنهم بدلاً من ذلك ذهبوا يقتِّلون بعضهم ويعملون في سلبٍ ونهب المحلات التجارية حتى إن أحد قادة الثورة المزيفين المشهورين قُتل في سوق البزورية بدمشق وهو يسطو على أحد هذه المحلات التجارية.

ثلاثة أيام وثلاث ليال والمعسكرات تفتحُ صدورها للقادمين ولا من يحرِّك دماغه ذرَّة من تفكير بين هؤلاء القادة من الثوَّار الذين لم يكونوا على مستوى القضية... بل بدأ الخلاف يصب على من سيستلم المناصب بعد زوال فرنسا؟!.

أين أنتم...

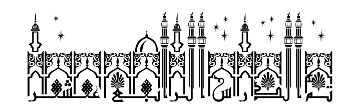
ألا تسمعون..

مالكم لا تتصرَّفون!.



ونامت أعين الدراويش فعادت الثعالب رويداً رويداً بعد أن اكتشف الفرنسيون بواسطة عملائهم أن أماكنهم ومعسكراتهم وسلاحهم الثقيل لم يلمسه أحد وأن الأمر لم يكن أكثر من مجرَّد كابوس مروِّع مرَّ بسلام.

أفاق الجنرال "سراي" من هذا الكابوس الثقيل صابّاً جامَ غضبه على دمشق مفرغاً حقده الدفين كاشفاً عن وجهه الوحشي الأثيم، فأمر مدفعيته الثقيلة إثر عودته بضرب حيٍّ الميدان المجاهد فانهارت البيوت واختفت ضحكة الأطفال ورسمت الدماءُ على الوجوه أفظع آيات الهمجية، وسال دمُ التشرُّد فأحرق البسمة وغطّى ألم اليُتْم الأبرياء وباتت دمشق منارةً على طوفان من لهب حي الميدان الشجاع.



الأسئلة:

1) لماذا كان الجندي متلهفاً لطلب إجازة؟.
2) وضح ... كيف استطاع الضابط السيد محمد أمين شيخو أن يجعل الحالة المعنوية تتهار لقائد الحملة الاستطلاعية ... وما هو تأثيرها على باقي الجنود؟.
3) ما الذي جعل الضابط السيد محمد أمين شيخو يُوقن أن ذلك الجندي سيؤدي دوره على النحو المطلوب؟.
4) لماذا غامر المندوب السامي الجنرال (سراي) وأصدر أوامره بالانسحاب من سورية؟.

❖ ❖ ❖

الدرس الخامس عشر:

القانون الثابت لسعادة النفس

نريد أن نبين في هذا الدرس المهم الكيفية في توليد الفساد، ومن ثم الشقاء الذي يحسبه الناس سعادة.

إن الإنسان يظل بمعيشته راضياً إذا شاهد أفراد مجتمعه يعيشون المستوى نفسه، الذي يعيشه تقريباً. وهذا الرضى يظل باقياً، طالما لم ير غيره قد سبقه في هذا المضمار كثيراً.

فبيته مثلاً يبقى في عينه جميلاً، ما لم ير قصوراً منيفة قد أشيدت إلى جانبه، ويبقى مسروراً بأثاثه ولباسه، ما لم ير جاره قد استحدث من الأثاث واللباس، ما يفوق أثاثه، جودة وأناقة.

كذلك يظل مسروراً بمأكله ومشربه، وأماكن لهوه وعاداته وتقاليده، سواء كانت سيئة أو حسنة، ما لم ير الدنيا قد تغيرت من حوله، عندئذ ينظر إلى ما كان يستحسنه بالأمس ويرتضيه، نظرة ازدراء واحتقار، ثم يبدأ الهم والغم يطارده في كل مكان، والضجر والسخط والتبرم من الحياة.

تُرى من الذي أحدث هذا الهم في نفس هذا الإنسان؟ ومن المسؤول عن شقائها؟. ومن الذي سلبه ذلك الرضى، وتلك السعادة، التي كان يتمتع بها نسبياً؟.

أليس المترفون، هم الذين أفسدوا على السواد الأعظم من أفراد المجتمع حياتهم؟ فلكي تتمتع هذه الفئة القليلة في كل مجتمع بالحياة، فإنها تفسد الحياة على الغالبية العظمى من الناس.

ليس بوسع الناس جميعاً أن تبني قصوراً، وتقتني أثاثاً يناسب تلك القصور، ولو حصلوا على ذلك، وهذا محال، فهل يقف الأغنياء منهم عند حد، أم أنهم يسعون جاهدين إلى اختلاق تفنن جديد في الحياة، لكي يظلوا متميزين عن غيرهم من الناس؟.

أجل: إن التسابق يظل موجوداً، لا من أجل الرفاه وحسب، بل من أجل التفاخر والتباهي أمام الآخرين: ﴿ **ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾** ﴾[1].

إذاً فالتسابق نحو الرفاه أو نحو التفاخر، ليس له نهاية، لأن النفس لا يستقر سرورها ورضاها طويلاً على شيء ألفته، بل تمجه وتطلب غيره، فكلما قضت من مطلب وطراً تفتقت لها مطالب جديدة، وتنقضي الحياة، وشهواتها لا تنقضي: ﴿ **أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾** ﴾[2] : ذلك لأن النفس لا نهاية لطاقاتها، فباستطاعتها أن تبتلع لذة الوجود من غير أن تشبع، أو من غير أن تروي طاقاتها اللامتناهية.

---

(١) سورة الحديد: الآية(٢٠).

(٢) سورة التكاثر: الآية(١-٢).

أما الله تعالى فقد أعدَّ لها تلك الطاقات الهائلة، لترتوي من معينه الذي لا ينضب، ومن جماله وجلاله وعلمه ورحمته.

وفي الحديث القدسي:

«ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»[1].

لذا إن أطاع الإنسان نفسه، وأراد إشباعها من شهوات الدنيا، فإنه يتردى، من غير أن يحقق لها إلا يسيراً من لذائذ الشقاء والضجر والسأم والضنك ويحسب أن فيها سعادته، والحقيقة أنها لا تخلصه من شقائه ولا يزداد إلا ضنكاً وهمّاً.

وبذلك التسابق نحو الرفاه، تأخذ الحياة بالتعقيد بدل التبسيط، والشقاء بدل السعادة، كما هو الحال في عصرنا، وهذا التعقيد بالحياة ينعكس سلباً على النفس فتتحول العقد إليها وتغدو نفساً منغصة معقدة فاقدة للروح والسعادة، فاقدة للبساطة الطبيعية التي فطرنا الله عليها، ويكون السبب في هذا هم المترفون، الذين أفسدوا الحياة على الفقراء، بما أحدثوه من زخرف وزينة، ونتيجة لهذا الفساد، تفسد الضمائر، وتفسد القيم، ويصبح همُّ الناس جمع المال، ليحققوا به شهواتهم ورغائبهم ولا يهمهم من أي طريق جُلِب، ليكونوا كأمثال من فاقوهم بالترف، أو ليتعالوا على من دونهم فيفسدوا قلوبهم ومعيشتهم.

إذاً، فإن الحضارة وما فيها من تعقيدات قد جلبت للناس شقاء وبؤساً، وولَّدت في نفوسهم حقداً وألماً، واستطاعت أن توقع بينهم العداوة، لا سيما بين المترفين بين بعضهم من جهة، والمترفين والمحرومين من جهة أخرى، فالمترفون يزدادون غنىً وتسلطاً واستغلالاً، والمحرومون يزدادون فقراً وعبودية وحقداً

---

[1] أحاديث الأحياء رقم/٣/.

وإذلالاً. ولا عجب عندئذ أن يتكتل الفقراء ضد الأغنياء، ليسقوهم الكأس نفسه الذي سقوهم منه. ولكن هؤلاء الفقراء الذين حلوا محل ساداتهم، لا بدَّ أن يعيشوا بعد حين بالعقلية ذاتها التي كانت لساداتهم، لأن الغاية التي قاتلوا من أجلها، هي نفسها التي تسنموا ذروتها. فضلاً عن ذلك، فإن كثرة المتطلبات الحضارية، تجعل الإنسان بخيلاً نحو نفسه ونحو ذويه، ولا يفعل من المعروف إلا قليلاً، وعدم فعل المعروف، يعتبر من الأسباب المهمة في تقطيع أواصر المجتمع، وفقدان المحبة فيما بينهم.

شرع الله كفيل بالخلاص من الأزمات الاجتماعية وتحقيق السعادة

ومهما يكن من أمر فإن الأزمة الروحية والخلقية في كل حضارة، لن تُحَلَّ إلا بالقضاء على مسبباتها، وهذا يعني الرجوع إلى شرعة الله، وامتثال أوامره، لأنها هي الشرعة الوحيدة التي تنقذنا من شقاء الدارين.

والتي أنقذت الصحب الكرام ومن تابعهم، من أجل ذلك حذر سبحانه وتعالى على لسان رسله من الاستغراق والتوغل في الدنيا لتمحيص طاقاتنا كلها، حتى لا نخسر الآخرة الباقية، وطلب إلينا أن نمشي في مناكبها، أي في أطرافها لا أن نغوص في أعماقها[1] لأن التوغل كما رأينا، وكما نعيشه الآن في هذا العصر، يحدث في الأرض الفساد، وإذا فسد الشيء، يصبح ضرره أكثر من نفعه، إن لم نقل لم يعد له نفعٌ أبداً. لم يقتصر إفساد الحضارة على أحوال المعيشة والأخلاق فحسب، بل إنها تفسد علينا طريق الوصول إلى سعادتنا الأبدية، أو الغاية التي خلقنا الله من أجل تحقيقها إن هذه الثورة (التقنية) قد جاءت مخيبة للآمال، إذ أنها أبعدت الناس عن السعادة الحقيقية وأوقعت العديد من الناس في مرامي الانتحار خاصة في صفوف الدول الغنية

---

(١) قال تعالى: ﴿... فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝﴾ (١٥) سورة الملك.

حتى أن التقرير الأُممي يشير في عام ٢٠١٠ أن نسبة الانتحار في العالم بلغت حداً لا يوصف لدرجة أنه يوجد منتحر في هذا العالم في كل دقيقة تمر، لقد فقدت النفس البشرية الحياة القلبية من جراء دخولها وولوجها ظلمات الشهوات والمادة العمياء وهي تظن أن بها السعادة الحسية فإذا بها التعاسة والحزن والألم، ذلك لأن السعادة الحسية بحقيقتها ليست سعادة، وإنما هي لذائذ وقضاء شهوات ورغائب، وشتان بين السعادة القلبية والرضى النفسي وبين لذة الشهوات المهلكة.

إن شهوات النفس كثيرة، وطاقتها غير محدودة، بينما طاقات الإنسان الجسمية محدودة، والفارق بين الطاقتين هو مبعث الألم ومبعث الشقاء، فتركيب طاقة غير محدودة على طاقة محدودة، يجعل الأخيرة لا تستطيع أن تلبي رغائب الأولى.

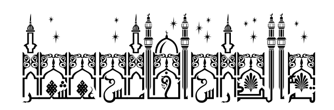
النفس كالفرس الجموح، كلما قضت من شهوة وطراً طلبت أخرى من غير ملل أو كلل، لأن ماهية تكوينها غير مادي، وهذه الطاقة غير المحدودة لم يعدّها تعالى لتملأ أوضاراً، وإنما أعدت لتملأ كمالاً وجمالاً مطلقين، ولتشرب من معين لا ينضب.

وشتان بين تلكما الحالتين، لذائذ زائفة كفيلة بإنتاج الضجر والسأم مشوبة بالهمِّ والغم والألم ومنتهية من قبل أن ينتهي الإنسان من الدنيا، وسعادة مستمرة ومتزايدة تظل معه إلى الأبد.

وفي الآخرة لا توجد إلا حقائق، والزيف ليس له وجود هناك، ولذا فإن نفس المعرض عن الله في الحياة الدنيا، بسبب اتِّباعه لشهواته، تذهب إلى بارئها عمياء، لأنها لم تحاول أن تتعرف على الحق في الدنيا. قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ..** ﴾: كنت أعمى البصيرة في

الدنيا. ﴿.. أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[1]!. أننساك اليوم!. لا بدّ أن يُساق لنفسك ما يلزمها من علاج. ويدعم هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿...فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[2].

﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾﴾[3].



(١) سورة طه: الآية(١٢٤ـ١٢٦).

(٢) سورة الحج: الآية(٤٦).

(٣) سورة الإسراء: الآية(٧٢).

الأسئلة:

١) لماذا جعل الله تعالى طاقة النفس البشرية غير محدودة وإلى أي هدف رتب الله تعالى لها ذلك الترتيب؟.

٢) لماذا تعاني البشرية في هذا الزمان من أزمة خلقية حادة وما سبب تلك الانتحارات بين الناس وخاصة المترفين؟.

٣) هل يمكن للفقراء المحرومين الساخطين على الأثرياء أن يصبحوا عادلين كرماء إذا حلوا مكانهم يوماً ما؟.

٤) النفس التي لم تتفتح بصيرتها وظلت منكبة على شهواتها كيف يكون حالها يوم القيامة؟.

٥) ما هو طريق السعادة الحقيقية؟.



الدرس السادس عشر:

طـريق الإيمـان بالله تعالى

كنا قد تحدثنا منذ بداية دروسنا في عالم الأزل عن طريق الإيمان بالله تعالى، والآن آن أوان هذا الدرس المهم، لنتعرف على أهم شيء يمكن أن يحول الإنسان إن هو صدق ويجعله في مصاف المقربين من الله عز وجل.

للإيمان بالله تعالى نظام وأصول، فما هو هذا النظام وما هي تلك الأصول؟.

إذا كان الخالق العظيم قد جعل لهذا الكون بجميع ما فيه من مخلوقات قانوناً ونظاماً يسير عليه ولا يتعدَّاه، وإذا كان الخالق العظيم قد سخَّر هذا الكون وذَلَّلَهُ لهذا الإنسان، فهل يُتصوَّر ويُعقل أن لا يكون لهذا الإنسان وهو أكرم المخلوقات وأفضلها قانون ونظام؟.

هل نظَّم الخالق العظيم الكون كله وترك الإنسان يسير في هذه الحياة على غير هدى ونظام؟.

هل نظَّم الخالق العظيم الكون كلَّه وأهمل هذا الإنسان، وتركه يتخبَّط في الظلمات فلا يعرف خيره من شره ولا يدري كيف يسير في مجاهل هذه الحياة؟. الفكر المستقيم والمنطق الصحيح والوعي السليم، كل هذا يحكم مقرّاً بوجود هذا النظام المرسوم لهذا الإنسان، فأين يا تُرى ذلك القانون والنظام؟.

تعالَ معي ننظر فيما جاء به الرسل الكرام عامَّة عن الله، تعال نستمع إلى أوَّل

كلمة أوحى بها الله تعالى إلى الرسول ﷺ ليُبلِّغها للناس إذ قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾[1].

تعال لِنُدقِّق في هذه الكلمة التي بلَّغها الرسول محمد ﷺ للعرب كافَّة ولجميع العالمين، تعال ننظر في تلك الدلالة التي دلَّ الرسول عليها أصحابه الكرام، تعال ننظر إلى ما كان يتلوه عليهم في مكة وفي الأيام الأولى من بعثته ﷺ من قرآن مُنزَّل من عند الله، تعال ننظر نظرات الظامئ إلى الحقيقة لا المتمسِّك بما وجد عليه آباءه الأولين دون وعي أو تفكير، تعال نخرج من هذه الجهالات التي ركَّبتها فئات من ذوي الأهواء والضلالات، تعال نرجع إلى الحق والحق أحق أن يُتَّبع، ولنقتد بالرسل الكرام ولنتبع النهج القويم الذي ساروا عليه كافَّة تجد النظام المنشود والقانون المرسوم في القرآن، والذي طبَّقه رسول الله ﷺ بذاته ودعا إلى تطبيقه صحابته الكرام، فكان لهم ما كان من شأن حتى ملأ ذكرهم الخافقين، وفازوا بما فازوا به من السعادة والخيرات.

أقول: ذلك القانون والنظام هو أن تتعرَّف إلى أصلك وتنظر في بدايتك أيها الإنسان، فمن عرف نفسه عرف ربَّه، ومن عرف ربه هداه طريق السعادة وحفظه من الشقاوة والضلال، ومن يهدِ الله فهو المهتدي، ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه. فكِّر أيُّها الإنسان في أصلك، وتفكيرك في أصلك وبدايتك أوَّل مواد هذا القانون والنظام الذي شرَّعه لكَ الله، فكِّر وكيف لا تُفكّر وقد تفضَّل عليك ربُّك بتلك الجوهرة الثمينة التي تساعدك على التفكير وتصل بك إلى

---

(1) سورة العلق: الآية(١ـ٥).

معرفة خالقك ومربّيك، فكِّر وكيف لا تُفكِّر وقد جعل لك في هذا الكون من الآيات العظيمة والنظام البديع مراتع واسعة ومجالات كبرى يرتع ويجول فيها التفكير، فكِّر وكيف لا تُفكِّر والكون أمامك كتاب مفتوح تستطيع أن تقرأ فيه ولو لم يعلِّمك مُعلِّم، ولو لم يتولَّ أمرك أحد، فالله تعالى لك إن صدقت خير مُعلِّم ودليل، فكِّر في أصلك يوم كنت نطفة في ظهر أبيك، فكِّر في هذه النطفة كيف تكوَّنت وممَّ تركَّبت، فكِّر في هذه النطفة أين وضعت واستقرت؟.

فكِّر في نفسك وقد أصبحت في ظلمات الرحم وفي ذلك المستودع الأمين، فكِّر في تلك الأطوار التي مررت بها فمن نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة ومن مضغة إلى عظام، عظام مركَّبات بنظام واتساق، رُكِّبت عليها العضلات وخُلِقَ منها تجويف الدماغ وللعين والأذن والفم منه مكان، وللقلب والرئتين قفصهما وللأحشاء منها حوامل ومراكز للعروق والأوتار.

فكِّر ولا أريد أن أُفصِّل لك في هذا كل التفصيل، بل أدع لك المجال لتُشاهد وترى كيف أنَّ النطفة الأمشاج تحوَّلت إلى إنسان سوي ومخلوق كريم، فكِّر وقدِّر عظمة تلك اليد التي أوجدتك وصوَّرتك وسوَّت لك هذه الأعضاء وجعلت الدماغ والقلب والأجهزة الرئيسية، وما تتألف منه من أَعْظُمٍ وأجزاء في مكان أمين وحرزٍ حريز، فكر في تلك اليد التي كانت تسوق لك الغذاء وأنت في طريقك إلى الدنيا وحيداً فريداً لا حول لك ولا قوة، وما تملك لنفسك رزقاً وما يملك لك أحد رزقاً، لكن تلك اليد التي سهرت على خلْقك هي التي كانت ترزقك، فتسوق لك الغذاء وتمدَّ كل عضو من أعضائك بما يلزمه من مواد.

فكِّر في تلك اليد التي استطاعت خلال بضعة أشهر نقلك من نطفة إلى إنسان، فما تأخَّر خلقها وما هي بمسبوقة عن إنجاز الخلق وتركيب الإنسان في مدَّته المعيَّنة، فما أن أزف موعد الولادة والخروج إلى الدنيا حتى قَلَبَتْكَ وأنت في بطن أمك رأساً على عقب، فجعلت رأسك إلى أسفل وأرجلك إلى أعلى ويسَّرت لك السبيل إلى الولادة، قال تعالى: ﴿ **قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾** ﴾[١].

فكِّر وقد نزلت إلى هذا العالم الجديد في أرض جديدة، فأحاطك بعطف أُمك ولطفها وبثَّ في قلبها محبَّتك وأودعه حنانها وهيأ لك طعامك في ثدييها فإذا هو سائغ شرابه، لذيذ طعمه، مغذ حاوٍ كلَّ ما يحتاجه جسمك من مواد وجميع ما يتطلَّبه. فكِّر في تلك الوجبات من الغذاء التي كانت تُهيِّئها لك تلك اليد الرحيمة بك، فتزيد لك في معاييرها الغذائية لحظة بعد لحظة ووجبة بعد وجبة زيادةً متناسبة مع نُموّك وتقدُّمك في السن، حتى إذا ما احتاج جسمك مزيداً من التغذية وأصبحت معدتك قادرة على هضم الأطعمة، أنبت لك الأسنان اللبنية سنّاً بعد سن حسبما يقتضيه النماء وتتطلبه الحاجة.

ولسنِّ سبعٍ خلت من سني الحياة، ومن أجل جسم سيُهيَّأ لأن يضطلع بأمور مهمة وأعمال عظيمة وفكْر يدبِّر أموراً جليلة بدَّل لك تلك الأسنان اللبنية بأسنان دائمة تستطيع أن تهيئ لهذا الجسم ما يتطلَّبه من غذاء، فكِّر في تلك اليد التي تُربِّيك الآن فترسل بأشعة الشمس الحارة على البحار تُبخِّر مياهها، وتمرُّ الرياح

---

[١] سورة عبس: الآية(١٧ـ٢٢).

فتسوق السحب وتُثيرها من مكامنها ثم حييت الأرض من بعد موتها وارتوت من بعد عطشها كشفت الغيوم وأعادت إلى السماء صفاءها وللشمس إشراقها فإذا الزرع في نماء وإذا الأرض تجود بالخيرات، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1].

فكِّر في الأغذية وأنواعها، والأزهار وأشكالها وروائحها، والفواكه وألوانها وطعومها، فكِّر في الفصول الأربعة وتقلُّبها، فكِّر في النوم وقد جعله الله تعالى لك سباتاً وفي النهار معاشاً، فكِّر في الهواء يقدِّم لك ما في التنفس والاستنشاق وما يساعد على الاحتراق، فكِّر في الشمس وهي تمدُّك بالحرارة والضياء، فكِّر في البحار، في الأنهار، في السهول والجبال، في الحيوان والنبات، في الملابس والثياب في الصوف والقطن والكتَّان، فكِّر في هذه اليد التي تؤمِّن لك جميع ما تحتاج، وتسهر على تربيتك فإذا هي تغدق عليك من خيراتها وتغمرك بفضلها وتواصل عليك إمدادها في كل لحظة وآن دون أدنى انقطاع.

فكِّر على هذا النمط وبهذه التربية فبمثل هذا التفكير بدأ سيدنا إبراهيم أولى خطواته سائراً في طريق الإيمان، وبمثل هذا التفكير بدأ سائر الرسل الكرام من لدن سيدنا آدم عليه السلام حتى سيدنا محمد ﷺ، فكِّر فإن أنت فكَّرت اهتديت

[1] سورة الواقعة: الآية(٦٣ـ٧٠).

وعرفت أنَّ لك مربِّياً عظيماً ساهراً عليك لا يغفل عنك طرفة عين، أمدَّك جنيناً ثم مولوداً وطفلاً صغيراً، ثم رجلاً وإنساناً كاملاً ما يزال إمداده عليك دائماً، وخيره إليك جارياً متواصلاً، حتى إذا ما استقرَّ في نفسك وعقلته فتحققت فيه، فهنالك سينفتح أمامك أفق جديد ونمط آخر من التفكير.

سترى أن جسمك سوف لا يبقى قوياً جلِداً وأنك سوف لا تعيش في الحياة مخلداً، فهذا قريبك قد ودَّع الحياة ومات، وهذا جارك قد فارق زوجه وبنيه وقضى نحبه، ولم يتمتَّع بالحياة الدنيا سوى أعوام معدودات، وذاك صديقك لم يفرح بمتجره ولا ببيته الذي شيّده وبناه، بل قطع هاذم[1] اللذات كل أمل له في الحياة ووافاه الأجل ولم يُنظره لحظات. وذا مات مريضاً وذا عليلاً وهذا فجأة دون أدنى استعداد، وتنظر إلى هذا وذاك، حتى أنك لتمر بذهنك على الملوك والأمراء والقوَّاد العظماء والأغنياء والفقراء، حتى الرسل الكرام فما تجد الموت أبقى أحداً، وهنالك تعلم أنَّ الموت مصيرك المحتوم رغم كل المحاولات، كما هو مصير من كان قبلك فلا نجاة منه ولا خلاص، وهنا تنقطع آمالك من هذه الحياة الدنيا، وتعلم أنها دار الرحلة والفناء.

ويبعث التفكير في الموت الخشية في نفسك والرهبة ويولِّد الصدق في معرفة المربي، وتهبُّ تبحث صادقاً عنه وتتساءل من هو هذا المربي الذي خلقني من نطفة، ولم أكن من قبل شيئاً مذكوراً، ثم جعلني طفلاً فرجلاً كبيراً؟. وتنظر في الكون من جديد نظرة أخرى أوسع من سابقتها، فتجد أن هذا المربي هو المسيِّر

---

[1] **هاذم**: بالذال، بمعنى قاطعها، لأنه إذا جاء لا يبقي من لذائذ الدنيا شيئاً.

الذي يسيِّر الشمس والقمر، ويدير الكون كله بما فيه من أجل تربيتك وتأمين ما يلزمك، فلا يد لأحد معه ولا تصرُّف لغيره، وهو الله وحده لا إلٓه إلا هو. وهنا تنتقل من الإيمان بالمربي إلى خطوة جديدة أخرى، وهي الإيمان بأن هذا المربي هو الإلٓه المسيِّر، فترى الأجرام السماوية جارية في مسابحها وأفلاكها، وتشهد الشمس تُرسل بأشعتها وحرارتها، والغيوم وقد هبَّت ثائرة من مكامنها، والرياح وهي تجري عاصفة في اتجاهاتها، والبحار الزاخرة متدافعة مياهها متلاطمة بأمواجها، والأنهار منطلقة من منابعها سائرة إلى مصبَّاتها منحدرة شلالاتها، حتى الكرة الأرضية السابحة في فضائها الجارية في فلكها الدائرة حول نفسها بما فيها من المخلوقات التي على ظهرها، ترى ذلك كله سائراً بأمره تعالى وقدرته.

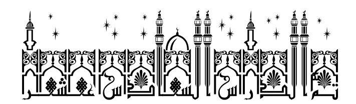
وتتعمَّق في النظر وتزداد تعمُّقاً فترى أنه لا يخطو مخلوق خطوة ولا يرفع يداً ولا يتحرك حركة، إلا من بعد إذنه تعالى وإرادته، وتنتقل في التفكير مرتقياً متسامياً حتى تصل إلى درجة تشهد معها أن الكون كله وحدة متّصلة الأجزاء مترابطة الذرَّات يعمل كله في اتساق وانسجام، وتلك الإرادة الإلٓهية هي المشرفة والقائمة عليه، وذلك المربي هو الإلٓه المسيِّر لهذا الكون كله، فلا مسيِّر غيره ولا إلٓه سواه.

إنَّك تعلم أن ربك هو الله، وهنالك تشهد أن لا إلٓه إلا الله بلسانك من بعد أن شهدتها نفسك في الكون كله، ومن بعد مشاهدتها في صميمك تقولها بلسانك وقد عقلتها عقلاً لا عن سماع وتقليد، وتؤمن بها كما آمن السلف الصالح والصحابة الكرام، لا إيماناً كإيمان العجائز مبنياً على خُرافات وأوهام، وإذا أنت والحالة هذه قد آمنت بتلك الكلمة صدقاً، وقلت لا إلٓه إلا الله حقاً، وذلك بعض ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ.. ﴾[1].

وقوله ﷺ: «**من قال لا إلَه إلاَّ اللّه مخلصاً دخل الجنة، قيل: وما إخلاصها؟. قال: أن تَحْجُزَهُ عن محارِمِ اللّه**»[2].

وكيف لا تحجزه عن محارم الله وقد أضحى في حال يرى الله تعالى معه مشاهداً رقيباً كيفما سار وأنَّى اتَّجه؟.



(1) سورة محمد: الآية(١٩).

(2) رواه الطبراني في الأوسط الكبير.

الأسئلة:

١) هل يعتبر الإنسان مؤمناً صالحاً إذا هو اكتفى بالسير على ما وجد عليه آباءه وأجداده؟.

٢) اشرح القول المأثور (من عرف نفسه عرف ربه).

٣) ما الذي يواجهه المولود الضعيف بعد خروجه لهذا العالم من أمه وأبيه، ومن أين لهما ذلك؟.

٤) عبر عن مشاعرك تجاه ما سمعته ودرسته من أن حليب الأم يزداد دسمه وغذاؤه للطفل الرضيع يوما بعد يوم وبالقدر المناسب تماماً حتى اكتمال العامين للطفل.

❖❖❖

طريق الإيمان ومحبة رسول الله ﷺ

بعد أن بلَّغتك هذه المرحلة بالدرس السابق ، مرحلة الإيمان بلا إِّله إلا الله ، ومن بعد أن وصلت بك بمرحلة الإيمان بالمربي، سأسرع في المسير وقد أضحيت ممَّن يستطيع السير معي بسرعة دون إبطاء، أريد أن أُبيِّن لك آثار الإيمان بكلمة **(لا إِّله إلا الله)**، وأن أنقلك إلى محبة رسول الله ﷺ فأقول: إذا أنت وصلت إلى الإيمان بلا إِّله إلا الله، وأصبحت ممن يرى أن سير الكون كله بيد الله، وانغمرت نفسك بهذه المشاهدة فصرت ترى أنه لا رياح تهبُّ، ولا غيوم تتلبَّد وتتجمَّع، ولا أمطار تهطل، ولا برق يلمع ويومض ولا رعد يدوي، ولا بحر يموج بعضه في بعض فيعلو ويهبط، ولا نهر يتدافع ماؤه في تدفُّق متواصل، ولا بركان يثور في غضب، ولا سيل يجري في عنفوان وشدة، ولا زلزال يهزُّ الأرض هزّاً فيلقي الذُّعر في قلوب غافلة لاهية، ولا أرض تدور في سبيل توليد ليل ونهار وفصول أربعة، ولا نجوم تجري لامعة في أفلاك مُنظَّمة، وإن شئت فقل:

إذا أنت أصبحت ممَّن يُشاهد أن الكون بجميع ما فيه من مخلوقات، وحدة تُصرِّفه يد عزيز حكيم وإرادة عليم خبير، حتى أن يدك لا تتحرك بحركة وعينك لا تطرف بنظرة، وأذنك لا تستمع إلى صوت أو جلبة، وقلبك لا يخفق نابضاً بين انقباض وانبساط، وأن معدتك لا تفرز عصاراتها على ما فيها من أطعمة،

وكبدك لا يقوم بتخزين مواد وإفراز مواد وفق معايير منظَّمة، ورئتك لا تتَّسع وتنقبض في شهيق وزفير، ودمك لا يجري في شرايين وأوردة، والكريات الحمر لا تنقل ما تنقل في غدوٍّ ورواح، والكريات البيض لا تقف مع الجراثيم في صراع وعراك، والجراثيم لا تُهاجم الجسم في عنفوان وشدّة، أقول:

إذا أنت وصلت إلى هذا عن طريق العقل والمشاهدة النفسية، لا عن طريق السماع من ذوي الاختصاص والنَّقل عن المجلَّدات والكتب، وصرت ترى أن الأمر كله بيد الله، وأن الناس جميعهم خاصَّتهم وعامَّتهم، قريبهم وبعيدهم، قويّهم وضعيفهم، لا بل الخلائق كلَّها لا يستطيع أحد منها أن يجلب لك خيراً أو يدفع عنك شراً أو يمدَّ لك يده بسوء أو أذى، أو يغيِّر من شأنك تغييراً، إلا من بعد إذن الله: تدخل في حصن الاستقامة ولا تستطيع أن تخرج عن حدود الله، وبما أن النفس لا تستطيع أن تظل هادئة بلا عمل، وبما أنها هجرت المنكر وهاجرت إلى الله لذلك تراها تنطلق جاهدة في فعل المعروف والإحسان، وتشتغل في مساعدة كل ذي حاجة تقرُّباً بفعلها إلى الله.

هنا وفي هذه المرحلة مرحلة الاستقامة على أمر الله، والتقرُّب بفعل المعروف زلفى إلى الله، تتولَّد في النفس الثقة بإحسانها والثقة برضاء الله عنها، وهنالك وبمثل هذه الثقة تقبل النفس على خالقها وتستقيم إليه وجهتها وتنعقد صلتها وتصلح صلاتها، فترى أنها في حال القرب لا البعد، والوداد والصفاء لا البعد والجفاء، والحياة الطيبة والروح والريحان، وعندئذٍ وبهذه الصلة والوجهة وبتلك الصلوات الطيبات تحصل النفس على ثمرتين ما كانت لتجنيهما لولا صلتها بخالقها، وما كانت لتظفر بهما لولا إقبالها على الله.

أما الثمرة الأولى: فهي أنها بوجهتها إلى خالقها تتساقط منها الذنوب، وأعني بالذنوب ما عَلِقَ بالنفس من شهوات دنيئة وما تمكَّن فيها من أدران. فبهذه الصلة بالله، تنحتُّ هذه الشهوات الدنيئة مُتساقطة، وتنغسل النفس من أدرانها، فتخرج من صلاتها وقد اكتسبت طهارة ونقاوة، وخلصت من شهواتٍ كانت تُنغِّصها وأدران كانت تُلوّثها، فلا بخل ولا جبن ولا حرص على الدنيا ولا شح، ولا فظاظة ولا غلاظة، ولا قساوة قلب ولا حب إيذاء، ولا ذل ولا خنوع، ولا ميل إلى بغي ولا عدوان، ولا مطمع بما في الدنيا من جاه وسلطان، حتى ولا أي صفة رديئة تُنقص من قيمة الإنسان وتُحط من شأنه بين الناس وعند الله.

ذلك كله تمحوه الصلة بالله والإقبال عليه تعالى، وفي حديث شريف ورد عنه ﷺ مبيِّناً فيه أثر الصلاة في نفس الإنسان إذ يقول ﷺ:

«أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلُّ يوم خمس مرات ما تقولون؟. ذلك يبقي من درنه شيئاً؟. قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا» [1].

تلك هي أولى ثمرات الإقبال على الله تعالى ونتائج الصلاة الصحيحة.

أما الثمرة الثانية: فإليكها وكم أنت مُغتبط إن نلتها، إنك وفي حالة صلة نفسك بخالقك لتشعر بالحياة تسري في أعماقها كما يشعر المرء بدفء الشمس المنعش في أيام البرد الشديد القارس، وتشعر بالحياة تسري في نفسك كما يشعر المرء بنسيم الهواء الرطب العليل إذا جلس تحت شجرة يتفيَّأ ظلالها في أيام الصيف شديدة القيظ، وتشعر بالحياة تسري في نفسك كما يشعر الظامئ الهيمان

[1] أخرجه البخاري ومسلم.

بجرعة الماء البارد يسري ريُّها في عروقه فيطفئ ظمأه ويُنعش جسمه وروحه، وتشعر وتشعر وليس من شعور لدى المؤمن بأجمل من ذلك الشعور الذي يجده في ساعات إقباله على خالقه ومربِّيه، وفيما أنت منغمس بهذا الحال من الشعور السامي الرفيع، تنطبع على صفحات نفسك معانٍ عالية من الكمال، وتلك هي الثمرة الثانية التي تجنيها النفس من تلك الصلاة الصحيحة وذلك الإقبال على الله. ومن آثار هذا الكمال الذي اصطبغت به النفس في ساعات الإقبال على الله، ومن مظاهره في نفس هذا المؤمن السائر في ذلك المضمار: الرحمة والحنان، والكرم والجود والسَّخاء والمروءة ومَدُّ يَدِ المعونة للمحتاج، وصِدْقُ الحديث والصراحة في الأقوال، واللطف والرقة ودماثة الأخلاق، والحلم والأناة والحياء، والشجاعة والوقوف في وجه الباطل وقفة الأبطال، والعدل والإنصاف، وعزّة النفس والإباء، وهكذا عدِّدْ ما شئت من صفات الكمال ومظاهره تجد النفس قد نالت في حال إقبالها على الله تعالى شطراً منه واصطبغت به، قال تعالى:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[1].

والآن وقد بلغت النفس هذه المرحلة وأضحت في تلك المنزلة، وأصبحت ذات كمال وخُلقٍ عالٍ، تجدها تُحب كل ذي كمال وخُلق عالٍ، إنها تحب كل ذي كمال بسبب ما فيها من كمال، إذ لا يُقدِّر الفضل إلا أهل الفضل ولا يعرف الكمال إلا أهل الكمال، فإذا رأت أهل الكرم والجود قدَّرت سبقهم إياها في الكرم والجود، وإن شاهدت أهل الرحمة والحنان قدَّرت تفوُّقهم عليها في الرحمة والحنان، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الصفات والأخلاق، فهي تُقدِّر كل متفوِّق

[1] سورة البقرة: الآية(١٣٨).

عليها وسبقه إياها، فإن وجدت مؤمناً كاملاً أحبَّتْه، وإن اجتمعت بمرشد صادق عشقته وصاحبته.

تقدير الرسول الأعظم ﷺ:

وبما أن رسول الله ﷺ هو سيِّد أهل الكمال، وأسبق العالمين قاطبةً في هذا المضمار، وحيث إنه ﷺ بقربه العالي من خالقه اكتسب من تلك الحضرة الإلۤهية أوفر حظ من الكمال، حتى إنه لم يدانه في ذلك المقام ملك ولا إنسان، لذلك تجد هذا المؤمن يُقدِّر رسول الله ﷺ تقديراً عظيماً يملأ قلبه وجوارحه، فلا يرى مخلوقاً أعظم في نظره ولا يجد إنساناً أسمى مكانة من رسول الله ﷺ، فإذا ما سمع بذكره حنَّ إليه قلبه، وإذا ما ذكر اسمه وذُكرت شمائله وأعماله سَرَتْ إليه نفسه قاطعة شاسع المسافات متخطِّية وبأقل من لمح البصر القرون والأجيال، فإذا هي في صحبة مع تلك النفس العالية، وإذا هي متمسكة بتلك العروة الوثقى استمساكاً لا انقطاع له ولا انفصام.

هنا وبهذا السريان النفسي وبذلك الارتباط المعنوي والصحبة لتلك النفس، وأعني بها نفس رسول الله ﷺ الزكية الطاهرة، تعرج نفسك إن كنت ممَّن وصل إلى هذا المقام بلطف ومن دون شعور مصاحبةً نفس رسول الله ﷺ المقبلة دوماً على الله، فإذا النفسان معاً في حضرة الله، وهنا يُضيء لك ما سمَّاه الله تعالى بالسراج المنير وهو نور رسول الله ﷺ عن طرف من كمالات الله تعالى فتُشاهد ما تُشاهد ما أنت أهل لُمشاهدته من رحمة إلۤهية وحنان وعطف ولطف ورأفة وإحسان وعدل وقدرة وعلم وحكمة، وواسع فضل وتربية وإمداد برزق لكل ذي روح وحياة، وتسيير شامل إلى غير ذلك من الأسماء الإلۤهية التي ما رأى طرفاً منها راءٍ إلا وهام بها عشقاً وشُغف بها حُبّاً.

وهنا وبمثل هذا العشق لذلك الكمال الإلٰهي والحب المنبعث عن رؤية تلك الأسماء الحسنى تحصل النفس على صلة عالية بخالقها، صلة ولَّدها الحب المنبعث عن رؤية الأسماء الإلٰهية والكمال، وهنالك وبهذه الصلة تكتسب النفس نوراً من الله تعالى ترى به الخير خيراً فتحبّه وتميل إليه، والشر شراً فتأنف منه وتزهد فيه، ولعمري تلك هي التقوى التي حثَّ الله تعالى عليها وندب إليها عباده المؤمنين إذ قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[3].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[4].

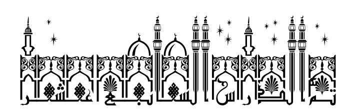
نعم تلك هي التقوى على حقيقتها، إنها اتِّقاء الشرور بنور الله تعالى، إنها اتِّقاء المهالك ورؤية ما في الدنيا من مفاسد بذلك النور الإلٰهي، الذي ما كنت تستطيع أن تصل إليه لولا ارتباط نفسك بنفس رسول الله ﷺ.

وهكذا فالإيمان برسول الله نتيجة من نتائج الإيمان بالله، وحب رسول الله ﷺ

[1] سورة التوبة: الآية(١١٩).
[2] سورة الحديد: الآية(٢٨).
[3] سورة الأنفال: الآية(٢٩).
[4] سورة الأحزاب: الآية(٧٠-٧١).

مقترن دوماً بالإيمان الصحيح مترافق مع الصلة الحقيقية بالله، وفي الحديث الشريف الذي ورد عنه ﷺ إذ يقول:

« ألاَ لاَ إيمان لمن لا محبة له، ألاَ لا إيمان لمن لا محبة له، ألاَ لاَ إيمان لمن لا محبة له ».



الأسئلة:

١) حين يقع زلزال ما في الأرض، من هم الذين يدب بقلوبهم الذعر والخوف؟.

٢) متى تستطيع النفس أن تدخل في حصن الاستقامة ولا تعود تعمل المنكرات ولا تقع بالأخطاء؟.

٣) الذنوب التي علقت بالنفس متى وكيف يستطيع الإنسان محوها والتخلص منها؟.

٤) رسول الله الكريم ﷺ، الكل يطمع بحبه والتقرب منه، متى يستطيع المؤمن أن يقدر ويعظم رسول الله ﷺ ويأذن له ربه بالارتباط الوثيق به؟.

٥) ما هي صبغة الله تعالى التي يصبغ بها الأنفس الملتجئة إليه؟.



الفصل الخامس

١) قصة واقعية، الحرب خدعة...
صدور حكم الإعدام على بلدة.
٢) التفكير والصدق يوصلان النفس للحقيقة.
٣) علوم القرآن الكريم وتوافقها مع النفس البشرية (الجزء الأول).
٤) علوم القرآن الكريم وتوافقها مع النفس البشرية (الجزء الثاني).



الدرس الثامن عشر:

قصة واقعية... الحرب خدعة

صدور حكم الإعدام على بلدة

قائد فرقة من الجند يثق كثيراً بقائده الأعلى العلاَّمة محمد أمين شيخو الموجِّه له في التخطيط والتكتيك وما نبعت هذه الثقة إلا بما شاهد منه من الحكمة والذكاء...من الشجاعة والدهاء... من التدبير العبقري العسكري السليم... ونتائج توجيهاته الباهرة النجاح، فتراه عندما يدخل معركة بفرقة الجنود يبقى على اتصال دائم بالقائد الأعلى... وخصوصاً في خِضمِّ المعركة وعندما يشتد الوضع الحربي تأزُّماً وتصاعداً وتضيق به وبفرقته مجالات التحرُّك والمناورة ويشعر بالخطر الحقيقي وقد هيمن على الفرقة ساريا... فلا يجد نفسه إلاَّ وقد أمسك بجهاز الهاتف الميداني واتصل بقائده الحكيم الرحيم يخبره بالواقع العسكري الأليم... طالباً رأيه الثاقب الحكيم لينفذه فوراً...

وبهذا الاتصال يوجِّهه قائده لخطة فينفذها مباشرة، ويكون النجاح والنصر المبين وتنقلب الكفة تماماً من خسارة مدمِّرة لنصر ساحق... كل ذلك بفضل هذا الاتصال الذي أجراه مع قائده الأعلى... فإن اتصل الإنسان بربِّه حقّاً صارت له الصلاة الحقيقية بالله (تلك التي يطلبها الله من كل عباده ومن أجلهم)، تذوَّق وشاهد المصلي فيها طرفاً من أسماء الله الحسنى، طرفاً من الرحمة... الحنان... اللطف... العدل... الإحسان... الجمال... عندها يذوق حقيقةً محبته تعالى لأن

النفوس مفطورة على حب الكمال، وبذا تتولد بقلب هذا المصلي حياةٌ حقيقية من الله، إذ يسقيه الله بهذه الصلة ماءَ الحياة الحقيقي الذي يُفْتَتَنُ فيه عما سواه وبذا تنهاه صلاته هذه عن الفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿ **وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾** ﴾[1].

وبهذه الصلاة ينصب في قلبه نور يفرِّق به بين الخير والشر... وبين الحق والباطل.

فما دام موصلاً نفسه بالله متَّجهاً إليه اتجاهاً صادقاً يصلِّي الصلاة التي لا يرى فيها مع ربِّه سواه دام له هذا النور الإلٓهي، يضيء للنفس طريق الحق ويُريها الخير من الشر، كما قال تعالى:

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ..** ﴾[2].

والمؤمن الصادق يستهدي ربه في سائر شؤونه ويستلهمه الرشد والصواب في كل أمر من أموره... وفي الحديث القدسي الشريف: «**لا يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به..**».

ومن كان كلام الله دليله في كل أمر من أموره فسيره كله في أمان واطمئنان، ومن كان نور خالقه سراجه وضياءه فحياته كلها سعادة وسلام.

---

(١) سورة الجن: الآية(١٦ـ١٧).

(٢) سورة الحديد: الآية(٢٨).

ومعظم خططه الحربية ﷺ وصحابته الكرام من بعده يجنيها في صلاته يريها الله له وبتطبيقها يكون النجاح الباهر بأقل عدد من الضحايا من الطرفين، إذ هو ﷺ رحمة للعالمين.

وأمامنا قصة تبيِّن لنا مصداقية هذا الكلام للعلاَّمة محمد أمين شيخو، والعلماء ورثة الأنبياء... وقعت بإحدى قرى الشام.

❖❖❖

كانت براكين الثورة السورية الكبرى قد اجتاحت كل المدن في سورية كالسيل العارم الطاغي، إذ لم تبقَ مدينة ولا قرية إلا وانضمت لنصرة الثورة السورية فالصراع دائر في كل مكان، وقد زاد الأمر سوءاً أن وصلت أنباء للحكومة الفرنسية عن طريق عيونها بأن هناك بلدة تشكِّل عبئاً كبيراً أيضاً على فرنسا في سورية... وأنها مقرٌّ خطير وملجأ كبير للثوَّار... تموِّنهم فتساعدهم ليستطيعوا تنفيذ أعمالهم الثورية في ضرب المصالح الفرنسية في سورية... عدا عن كل ذلك فمعظم شبابها ينضم لصفوف الثوَّار... إذن: إنهم قلباً وقالباً مع الثوَّار...

ازدادت حدة الأخبار تصاعداً... وازداد معها غضب الحكومة الفرنسية إلى أن بلغ السيلُ الزبى، فقرَّر المندوب السامي بعد أن أجَّجت الأخبار المنقولة فيه نار الحقد والغضب... وقرر بقسوته المعهودة حيال الظروف القاسية التي تواجهه مكشِّراً عن أنيابه الوحشية المفترسة مقابل أن يريح باله من هذه البلدة وما تزعم عيونه فيها من أنها مصدر للشغب والحركات الثورية التي تعكِّر صفو فرنسا وأمنها... عفواً أمن ظلمها واستغلالها في سورية قائلاً بصوت يخرج من أعماق الظلمات:

اضربوا هذه البلدة... دمِّروها...

جهزوا فرقة من الجيش بالمعدات الثقيلة واضربوها بقسوة... لا ترحموها فالحرب لا ترحم... نكِّلوا بأهلها... ليمت حتى الأبرياء... ليُحرق الأطفال... لتقتل الشيوخ والنساء... فكلهم أعداء لنا... لا يهم ليقتل من يُقتل، بل المهم القضاء على هذه الفتنة الملعونة.

وصل الخبر المحزن لأهالي البلدة وزعمائها الثوَّار عن طريق بعض المخلصين للوطن والمتمثلين صورةً بموالاتهم لفرنسا ضمن صفوفها..

وقع الخبر على مسامعهم كالصاعقة القوية فاهتزت له قلوبهم هلعاً وباتوا مذهولين حيارى وكأنهم وبوقوع النبأ على مسامعهم يرون تنفيذه العملي أمام أعينهم؛ كيف تُحرق البيوت... يتشرَّد الأبرياء... يُقتل الأطفال... تُذبَّح النساء والشيوخ... نعم لقد سبق ودمِّرت قرية "المليحة" قرب دمشق عن بكرة أبيها، وكذلك دمروا حي الميدان بدمشق.

ثار البعض منهم مزمجراً إثر هذا النبأ، تتفجر بقلبه براكين وبراكين من الغضب وتهزه هزات الألم الثوري... لكن الآخرين منهم وقفوا حيارى فلقد أدركوا تماماً أنهم أمام هذا الإعداد والتجهيز العسكري الذي سيُشن عليهم عاجزين عن أيِّ ردٍّ ولو ردُّوا فلن يكون لردهم أدنى اعتبار أمام القوات الفرنسية ومعداتها الثقيلة، بل ستثور ثائرتهم وتزداد قوة بطشتهم وتنكيلهم بأهالي البلدة الأبرياء ومصالحهم الزراعية... فماذا ستشكل بلدة صغيرة أمام دولة من الدول العظمى؟!.

ولكن ما الحل... ما العمل؟ فلو أن الأمر فقط أمرنا لما باليْنا ولواجهنا، ولتكن الشهادة نصيبنا، لكن الأمر أمرُ شيوخٍ ونساء... أمر أولاد وأطفال أبرياء، لا نريد لقساة القلوب أن يكتبوا مصير أبريائنا بيدهم... رباه... رحماك... رحماك يا الله.

صمت الجميع يحبسون دموع الألم والحزن وكأن المجزرة تقع أمامهم الآن... ساد البلدة صمت حزين... سكون حائرٌ... فرفعوا أكفَّ الضراعة لله متوسلين بقلوبهم راجين أن يرفع عنهم هذه المجزرة... رحماك يا الله ففينا شيوخ ركَّع... رحماك ففينا صغارٌ رضع... وأطفالٌ رتَّع...

قطع هذا الصمت المشحون بالتوسُّل والدعاء القلبي الخفي صوت أحدهم المتأوِّه الحزين قائلاً:

تعرفون الضابط السيد محمد أمين... ذلك الضابط المنسوب لسلالة سيدنا رسول الله ﷺ،... أما سمعتم ورأيتم أطواراً من إخلاصه وتضحياته لشعبه ووطنه وتعاونه الخفي مع الثوَّار ضد فرنسا الظالمة... وما من أحد إلا وسمع كيف سلَّم أسلحة قلعة عنجر كاملة لنا... للثوَّار خفيةً وأنجاه الله وسلَّمه من كيد فرنسا بمعجزة... وكذا أوقَفَ مسير عدّة حملات لبلاد عدة بتدبيره وتخطيطه الذكي... فلمَ لا نلجأ له... عسى أن يخلِّصنا من هذا المأزق... ويرفع عنا هذه المجزرة الوحشية...

ردَّ آخرون: وماذا يستطيع أن يفعل بمثل هذا الموقف وما إمكانياته بمفرده تجاه فرنسا مهما دبَّر وخطَّط علماً أنه لا يمكن له الظهور بهذا الوجه الحقيقي أمامهم والمواجهة وجهاً لوجه، نظن أن الأمر عقيم...

ردَّ الأول: ولكن عسى أن يجعل الله الفرج على يديه... فلماذا لا نجرِّب والله يتولى الأمور فإن لم نستفد من إمكانياته الرائعة فلن يضرنا الأمر أكثر مما نحن فيه.

وافق الجميع وبعثوا بأحدهم وعلى وجه السرعة ليخبر الضابط الثوري السيد محمد أمين والذي كان مستلماً خاتم الثورة السورية.

❖❖❖

وصل الرسول لمنزل السيد محمد أمين مساءً فطرق الباب واستقبله ضابطنا وبكلماته التي تبعث في القلوب الظمأى روحاً وريحاناً فتطفئ لظى اليأس والقنوط ، سمع قصته وكبير معاناة زعماء البلدة وثوَّارها من هذا الخطر الجسيم الذي اقترب موعده...

نظر السيد محمد أمين بواقع الأمر فأدرك تماماً حقيقته المُرَّة وأحسَّ بما يعانيه قادة البلدة وثوَّارها من كابوس هذا الخبر القاسي المرير وما سيؤول إليه حال البلدة وأهاليها إن حدث (لا سمح الله) هذا الاجتياح العسكري لها بحجة ضرب مواقع الثوَّار الإرهابيين في البلدة (على حد زعمهم) فهم سيحرقون الأخضر واليابس... سيهدرون الكثير الكثير من دماء الأبرياء... ولكن ما العمل جراء هذا القرار النهائي الذي اتَّخذته الحكومة الفرنسية القاسية.. فكَّر قليلاً بالأمر... وعانى مرارة الخبر هذا... فمواجهة الثوَّار لا تجدي وإن حدثت فسيكون هناك أضعافٌ مضاعفة من الضحايا والتدمير عمَّا لو اتَّبع أسلوباً ثانياً.

التجأ إلى الله حقَّ الالتجاء... فلقد كان وقْع الخبر عليه ثقيلاً مُرّاً ، إذ يعلم تماماً ما ستقوم به فرنسا باتِّخاذ هذا القرار...

التجأ إلى الله طالباً : كيف النجاة!. وما هي إلا لحظات صمت... حقيقتها توسلٌ كبير وتضرعٌ عظيم لله إلا والخطة تطرق باله... فلقد برقت في مخيِّلته... وبها إن شاء الله الخلاص... نظر نظرة يملؤها الأمل والثقة بالله وقد طفح وجهه بالبِشر والتفاؤل... بأنَّ الله سيردُّ أولئك القساة المعتدين ولن ينالوا من هذه البلدة...

قال : اسمع أيها الرجل... من فورك اذهب لأصحابك وأخبرهم بأن الضابط محمد أمين يبلِّغكم السلام ويقول لكم بأن تبحثوا عن رسَّام ماهر في البلدة فإن لم يوجد فعندنا رسَّام رائع ليرسم أفضل صورة وأتقنها وبحجم ضخم ، تمثِّل القدس

الشريف وليتعاون الجميع ويثبتوها بمدخل البلدة وعلى جدار البيت الأول المكشوف للقادمين لهذه البلدة... وبشكل جميل... وبإذن الله المشكلة محلولة.

ردَّ الرجل: فقط يا سيدي وستنحل المشكلة... كيف؟.

قال السيد محمد أمين: كما قلت لك... وأسرعوا بالتنفيذ ولا تتوانوا...

اطلبوا من الرسَّام أن ينفِّذ ذلك بأبدع ما لديه من مهارة وأسرع ما عنده والله يتولى الأمور.

عاد الرجل مسرعاً يزفُّ الرسالة للقادة والزعماء...

لقد فهموا مراد السيد محمد أمين... فأسرعوا بتنفيذ الوصية.

❖❖❖

وما هي إلاَّ فترةٌ وجيزة حتى كانت اللوحة الفنية الكبيرة الرائعة تستقبل داخلي البلدة على جدار أول بيت تغطيه بكامله عند مدخلها صورةٌ تمثِّل القدس الشريف تُرى وتشاهد من مسافات بعيدة بسبب ضخامة حجمها الكبير.

حان موعد انطلاق التجهيز العسكري لضرب البلدة...

مضت أيام قليلة وانطلقت الحملة بضباطها ومعداتها الثقيلة (دباباتها) وعُدَدها يرأسها أحد القوَّاد الفرنسيين... وقد كشَّر عن حقيقته الوحشية وكله إصرار على ضرب البلدة بمن فيها بحجَّة ضرب الثوَّار الإرهابيين في مخابئهم وملاجئهم ومواقعهم.

وما أن شارف على البلدة عن بعد حتى لَمَحَ الصورة... كان ينظر بمنظاره الحربي الميداني ليُصدر أوامره للمدفعية الثقيلة والدبابات بقصف القرية حينما استدعى معاونيه الضباط وطلب منهم تحويل مناظيرهم الميدانية الحربية لمدخل البلدة وسألهم ألا تشاهدون ما أُشاهد؟ قالوا: بلى.. أهل القرية حتماً منَّا.

إذاً هذه البلدة مسيحية... معظم أهاليها ينتمون لنا فَلِمَ ندمِّرهم... إنهم من أبناء ديننا... ومستحيل أن يصدر منهم ما سمعنا من أخبار...

إن هي إلا أخبار مغلوطة أو كاذبة ويجب القصاص ممَّن نقلها.

انطفأت نار ثورة غضبهم وأحسَّ القائد ببرودة أعصابه... فعليه الانسحاب وعدم قصف البلدة مطلقاً.

هنالك مباشرة اتصل بقائده في السرايا مركز الحكومة بالقائد العام للجيش الفرنسي ينبئه بالأمر... فما كان جوابه إلا أن قال:

هكذا إذاً... بلدة مسيحية!! ولا بد أن ما وصلنا من أخبار مُخبِرينا خاطئة حتماً... إذاً تراجعوا... ولا تدخلوها، بل دعوها بسلام...

قائد الحملة: حاضر سيدي... فهذا أيضاً من رأيي... حالاً سننسحب.

وبسرعة أصدر أوامره للفرقة العسكرية بالانسحاب... فتراجعوا بمعداتهم الثقيلة المرعبة إلى موقع عسكري آخر لصد هجمات الثوَّار...

وبذلك نجت البلدة من خطرٍ جسيم كان سيحلُّ بها فيدمِّرها...

لقد عاد الأمن والأمان والاطمئنان للأهالي... وخلصوا من هذا الكابوس المرعب المخيف... خلصوا من جرائم وحرائق كانت ستحيل عيش من يبقى منهم على قيد الحياة مرّاً قاسياً والكثير سترديهم... فلقد استجاب الله لهم وأنجاهم من هذه الجرائم والأخطار... من هذه الحرائق والآلام... من الدماء التي ستهدر وتراق من المحاصيل التي ستحرق وتذروها الرياح... من البيوت التي ستخرُّ على رؤوس أهاليها فتغدوا قبوراً لهم... مجزرة كبيرة وأزالها الله بما ألهم عبده الصادق من خطة

مهيبة... بما ألهم ذلك الإنسان الثائر الفدائي الصاعق على الباطل دائماً وأبداً والمناصر للحق... لشعبه... لوطنه الحبيب...

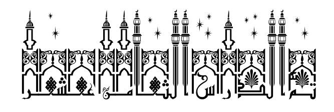
فهذا إنساننا الحكيم قد استغل حكمته البالغة هذه لنصرة الحق وأهله ضد الظلم والفساد... ضد تخريب قلوب العباد مخفياً حقيقته هذه عن أنظار فرنسا متوكلاً على الله في عملياته ودعمه للثوَّار ضد فرنسا.

نعم شكَّت فرنسا بازدواجيته ولكن لا برهان ولا دليل وحاولوا مراراً التخلُّص منه ولكن أبى الله إلا أن يحقِّق مبتغاه في الخير ونصرة الحق وكانت عنايته تعالى الرحيمة تتدخل في كل مأزق عسير فتنجيه من الموت المحتم... تنجيه من كيد فرنسا بأعجوبة... فالفعال هو الله وحاشا أن يُذل عبد مخلص له... صادق معه.

فبنور الله وبما في قلبه من فرقان... من بصيرةٍ ثاقبة استطاع أن يدلي لأهالي البلدة بالخطة التي ضمنت سلامتهم... فكم وفَّر شلالات دماءٍ وآلامٍ وحسرات... حرائق ودمار.

ألا إنها ثمرة الصلاة الحقيقية... ثمرة الحب الإلَهي والإيمان العالي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني



الأسئلة:

1) إلى من يُنسب العلاّمة محمد أمين شيخو؟.
2) ما الذي يصبه الله تعالى في قلب المصلي وما هي نتائج ذلك؟.
3) ما هو الأمر الذي أصدره المندوب السامي في سورية؟.
4) بماذا أشار العلاّمة محمد أمين شيخو على أهالي البلدة؟.

◆..............................◆

❖❖❖

الدرس التاسع عشر:

التفكير والصدق يوصلان النفس للحقيقة

القرآن الكريم كلام الله تعالى للناس جميعاً، وهو خطاب مباشر من الله تعالى للإنسان، فبه النهج القويم والأحكام الرشيدة، تكفل السعادة والهناء للجنس الإنساني في كل زمان ومكان .

والدرس اليوم سيلقيه علينا الكاتب والمفكر الكبير الدكتور مصطفى محمود إذ يقول:

لقد ناقشني بعض الناس المتأثرين بالأفكار الإلحادية، والذين يرفضون أن يكون القرآن كتاباً ربانياً، ولقد اتضح منذ البداية (بداية نقاش هؤلاء) أنهم لا يعرفون شيئاً عن القرآن ولا عن علومه من خلال دراسة علمية منطقية قاموا بها بأنفسهم، بل يكتفون بالهجوم وعدم تقبله من جراء نقد بعض الرافضين له من غير المسلمين، ويذهب البعض الآخر إلى القول بأن هذا القرآن لا يصلح للتطبيق في هذا الزمان العلمي المتقدم، لأنه صيغ وكتب بفترة بدائية من التاريخ القديم لا تتوافق مجرياتها وأحداثها مع عصرنا هذا.

والحقيقة الراسخة الأولى التي كنت أجيبهم بها، لو كان كلامهم صحيحاً وأن القرآن كتبه الرسول محمد منذ ١٤٠٠ سنة تقريباً، ووصلنا إلى هذا الزمان العلمي المتقدم، لكنا رأينا كل سطر فيه مليء بالترهات والسخافات ولوجدنا أشياء تبعث على الضحك بل لفجرنا من شدة الضحك!! فماذا سوف تتوقع من رجل عاش طيلة عمره وهو لا يقرأ ولا يكتب... ويدعي أنه رسول من الله، ومعه كتاب منه إلى

الناس، وفي مكان ناءٍ من العالم بعيد عن الحضارات في ذلك الزمن (في مكة) ومن عمق هذا التاريخ الطويل ١٤٠٠ سنة ، فما الذي تتوقع أن يكون فيه سوى نكات وأساطير تبعث على الضحك والاستهزاء؟!.

ولكن هذا غير موجود أبداً، بل على العكس تجد القرآن في قمة العلوم المنطقية والعلمية والنفسية والكونية، وتراه رغم كل هذا التفوق الرهيب، هادئاً يناقش كل القضايا بروية وعقلانية تبعث على الدهشة والإعجاب ..لقد خرَّج القرآن الكريم النوابغ والعظماء على مر التاريخ، وانسجم معه المفكَّرون من كل أرجاء المعمورة وانطلقت الأمم والشعوب لتدخل في دين الإسلام من جراء علوم القرآن الكريم، فثلاثة أرباع المعمورة تركوا دينهم ودخلوا في دين القرآن، فهل من الممكن أن يغير الإنسان دينه ببساطة؟! مستحيل ... ثم لنفترض أن هناك من يغير دينه... شخصاً أو اثنين أو أكثر... أما أن تدخل أممٌ وتنقلب من دينها الموروث إلى دين جديد فهذا لا يكون أبداً، إلا أن يكون هذا الدين هو دين الله.

فمن الصين بل من وراء الصين مروراً بأمم الهند والسند وشمال آسيا، إلى المنطقة العربية وتركيا وأمم شمال تركيا إلى أجزاء واسعة في أفريقيا وأوروبا، تركت الأمم والشعوب دينها واصطبغت بصبغة الإسلام، وبعد كل هذا التاريخ الطويل تجد القرآن كما هو ذاته لم يتبدل ولم يتغير ولم يزد عليه حرف واحد، كما لم ينقص منه حرف واحد، فما هذا الإكبار وما هي هذه العظمة ؟! وبالرغم من العداء المتواصل من غير المسلمين لم يُحرَّف القرآن أبداً، ولقد شاهدنا الدسوس تدخل في التفاسير الإسلامية، وتنسب أيضاً أقوالاً وأفعالاً زوراً عن الرسول الكريم، ولكننا لم نشاهد مثل ذلك في القرآن الكريم، بل لم يستطع أحدٌ أن يغيِّر فيه حرفاً، فلماذا؟!.

أيعقل أن يكون هذا من كلام البشر ويحفظ بهذا الحفظ العجيب الغريب ؟!.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1].

والأمم التي دخلت بالإسلام على مر العصور تراها تأثرت هي بالإسلام وكتابه الكريم، ولم يحصل في أيام ضعفها أن تؤثر هي بالقرآن فتغير فيه؟!.

إن قضية حفظ القرآن الكريم من أي تبديل قضية ذات شأن كبير تستدعي الانتباه وتثير التفكير بهذا الكتاب الرباني.

ويتابع الدكتور مصطفى محمود قائلاً:

لقد كنت بالماضي في فترة الشباب من أشد المعارضين لفكرة أن القرآن هو كلام الله تعالى، ولكن مثَلي مثل هؤلاء .. كنت أعارض من دون أية دراسة علمية خاصة بي، ولكن يغلب علي دائماً هو ما أراه من بعض المسلمين من تجاوزات وانحدار بالأخلاق العامة، وقول أشياء من خارج القرآن تعارض المنطق، مما كان يعمق فكرة رفض القرآن لدي، وفيما بعد، وحين دراسة الآيات الكونية وتوافقها مع القرآن الكريم وعلمي أن ما يقال من بعض المسلمين لا علاقة له بالقرآن أبداً، تغير موقفي تماماً، بل انقلب سخطي رضى وإعراضي إقبالاً، ولقد تعجبت من تلك الحرية التي منحنا الله إياها، حتى أننا نستطيع أن نقبل كلامه ونستطيع أن نرفضه! فكان هذا أول إعجابي وحبي لهذا الكتاب، ولقد فهمت مبادئ القرآن... أنك إذا أردت أن تقبله فاقبله من بعد تفكر وعلم، كما أنك إذا أردت رفضه فلا تكن إمَّعة تنقل وتردد كلام غيرك... بل أيضاً ارفضه من بعد تفكُّر فيه وعلم، وذلك الهدف يرمي أنك إذا فكرت فيه بغية رؤية وجود أخطاء يحويها أو تناقضات بين آياته... فإن

---

[1] سورة الحجر: الآية(٩).

ذلك التفكير الدقيق فيه سيأخذك للإيمان به دون أن تشعر، وذلك الهدف لن تراه في أي كتاب بالعالمين.... فبالرغم من كثرة المواضيع وتعددها وتبيان الحكمة منها وذكر قصص طائفة من الأنبياء الكرام، واهتمام القرآن بالأحكام الإنسانية والتشريعية، وردوده على كل الفئات الباطلة منذ بدء البشرية إلى زمن نزوله ... وذكره لأهل الكتاب السابقين بإسهاب وتفصيل هو فعلاً مذهل، أقول بالرغم من كل ذلك وغيره مما لم أذكره، لا تجد تعارضاً بالقرآن أبداً، بل يطلب الله من الناس أن يفكروا بهذه القضية الكبرى بقوله الكريم: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾** ﴾[1]. إن هذه الآية بحد ذاتها مثيرة للتفكير والتأمل...

والحقيقة لا يجرؤ أعظم أديب على كتابتها في كتابه مهما أوتي من قوة البلاغة وشدة الفصاحة وضبط الموضوع.

إن القرآن يتحدى المعارضين أن يجدوا تعارضاً في آياته الكثيرة ومواضيعه المختلفة، بل ويحثهم على البحث والتفكير بذلك كما ذكرت سابقاً.. علّهم إذا بحثوا ولو بهدف النقض أن يهتدوا حين يرون عجزهم وقلة حيلتهم في أن يجدوا اختلافاً. وهذا يكون دافعاً لهم أيضاً حين البحث بآياته أن يروا العلم والمعرفة والدقة المتوافرة في هذا الكتاب العظيم. ولقد حدثنا القرآن الكريم عن المؤمنين وعلى رأسهم الصحابة الكرام، فهؤلاء المؤمنون الصادقون الذين غيَّروا خارطة العالم وجغرافيته السكانية وهم أصحاب الولاء المطلق للرسول الكريم ... حدثنا القرآن عنهم في

[1] سورة النساء: الآية(٨٢).

معرض مدحهم والثناء عليهم أنهم لم يكونوا ليقبلوا شيئاً من أوامر القرآن أو الكون دون تفكير عميق بذلك الأمر... قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ ﴾[1].

وأيضاً العلاَّمة محمد أمين شيخو الذي استقى علومه من القرآن الكريم يهتم جداً بهذه الناحية العلمية، وتراه دائماً يحضُّ الإنسان على التفكير بكل شيء، توافقاً مع القرآن الكريم... أليس من المفروض أن نفكر فيه دائماً وباستمرار؟! ومن هنا تدرك كلمة رسول الله الكريم عن حب العلماء المفكرين للقرآن حيث قال: **(لا يشبع منه العلماء)**

فكان العديد من الذين يناقشونني بمختلف القضايا العلمية والاجتماعية والنفسية وغيرها الكثير... يعودون نادمين على اتهامهم القرآن والشك به من دون دراسة تلك القضايا من ذاتهم.

والحقيقة أن العلم بحر ولكن لا غرق به أبداً ولا ضياع، وإنما الجهل مستنقع يودي بالذي يضع قدمه فيه، لذلك على طالب الحقيقة أن يطلبها من الله السميع القريب فبصدقه وطلبه من الله تعالى... فإن الله سيجمعه مع إنسان صادق وعالم كبير يدخله في مداخل الحقيقة والعلم تماماً كمثال الفيلسوف الإنكليزي والعالم الشهير السير جون بينت الذي بحث كثيراً عن الحقيقة واجتهد للوصول إليها... وكان عنده الكثير من الملاحظات على القرآن الكريم ... فإذا به في يوم من الأيام وجهاً لوجه مع عالم كبير، سليل رسول الله ﷺ، إنه محمد أمين شيخو.. وقد أفرد الدكتور مصطفى محمود كتاباً خاصاً عن بعض علوم العلاَّمة محمّد أمين شيخو بعنوان (نظرات في صحائف العلاَّمة محمّد أمين شيخو).

---

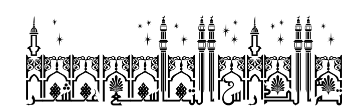
[1] سورة الفرقان: الآية(٧٣).

وبعد سلسلة من الحوارات الرائعة بينهما أعلن السير جون بينت إسلامه وأعلن في كتاباته أن القرآن هو كلام الله الذي لا شائبة عليه أبداً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1].

وكذلك الحال في كل زمان وبكل وقت، فهذا الصادق سلمان الفارسي نموذج آخر للباحثين عن الحقيقة، ولك من قصة اجتماعه برسول الله الكريم عبرة ... وفي قصة لقاء سيدنا موسى مع سيدنا شعيب عليهما السلام وكيف أن الله ساقه من حيث لا يدري إلى أعظم عالم في ذلك الزمان، فهدّأ من روعه وطمأن قلبه من عدم وصول الظلاّم إليه... وأكمل دراسته على يديه الطاهرتين.

فإن كنت تريد العلو والرفعة والعلم فليس لك سوى التفكير والبحث بصدق والطلب من الله العليم بك.. وعندها يفتح الله عليك ويجمعك كما جمعني بأهل الحق الصادقين.



[1] سورة التوبة: الآية(١١٩).

الأسئلة:

1. ١) بماذا عبر الدكتور مصطفى محمود عن الذين يناقشون ويجادلون للتشكيك بالقرآن الكريم؟.
2. ٢) ماذا يقصد الدكتور بقوله لو أن القرآن كتب قبل ١٤٠٠ سنة في منطقة نائية من العالم بعيدة عن الحضارات من إنسان لا يقرأ ولا يكتب ويدعي أنه رسول من الله فماذا كنا سنقرأ فيه؟!.
3. ٣) إلى ماذا يشير الدكتور مصطفى محمود من جراء حفظ القرآن الكريم طيلة مرور القرون الطويلة؟.
4. ٤) ماذا يجني المرء من النظر والتفكر بالقرآن الكريم وإلى أين يوصله ذلك؟.
5. ٥) اشرح الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣ ﴾ سورة الفرقان: الآية(٧٣).
6. ٦) ما هي الطريقة التي يذكّرنا بها الدكتور مصطفى محمود للوصول إلى الحقيقة الثابتة؟.

❖❖❖

علوم القرآن وتوافقها مع فطرة النفس البشرية

إن الإنسان مأمور من الله تعالى أن ينظر في الكون ويفكر فيه بغية الوصول إلى الله تعالى من وراء تعظيم صنعه، وكيف أن الله تعالى يضمن سير وحياة هذا الكون... وكذلك على الإنسان أن ينظر في أوامر هذا القرآن الكريم تلك الأوامر التي تتوافق تماماً مع نظام الكون وسيره من حيث إن الآيات الكريمة ضامنة لسعادة الخلْق جميعاً، فأوامره تعالى تعود على الإنسان بالخير وتكفل السعادة للمجتمع الإنساني من النواحي الصحية والاجتماعية والحقوقية والاقتصادية إلى غير ذلك من النواحي الأخرى، كما تكفل السعادة النفسية من حيث راحة النفس وسرورها ودوام طمأنينتها دون أدنى نغص وكدر. فكما أن الكون كامل ومُنظم... فكذلك كلام الله وقانونه كامل ومُنظم.

إذ من المسلَّم به أن القانون الإلَهي الذي يضعه الخالق إنما يكفل سعادة الخلْق عامة آحاداً ومجتمعين، صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً، إنه يضمن للإنسان حياة طيبة في جميع آفاق الحياة وأوضاعها في كل زمان ومكان، وعصر ومصر، مهما كرَّت القرون وتوالت الأيام.

في مثل هذه النواحي يجب على الإنسان أن يبحث، وفي مثل هذه الآفاق يجب أن يجول الذهن جولات طويلة فإن هو وصل إلى بغيته واطمأنت النفس بعد بحث

وتحقُّق من توفُّر تلك النقاط فقد آمَنَت حقّاً وأصبح إيمانها مبنياً على علم لا يتسرَّب إليه ريب ولا ينتابه شك من الشكوك.

إن النفس إذا عقلت أوامر القرآن (أي شاهدت حقائقها) تكون قد آمنت بها حقّاً وإنما الدين هو العقل، ومن لا عقل له لا دين له، وإنما يتفاوت الناس بالدين بتفاوت عقولهم. وتفصيلاً لبعض هذه النواحي نقول:

إذا نحن نظرنا إلى القرآن من حيث تحليله الطيبات وتحريمه الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ به لغير الله، ومن حيث أمره بالوضوء والغسل والطهارة من النجاسة واعتزال النساء في المحيض إلى غير ذلك من الأوامر التي تتعلَّق بحفظ الصحة وجدناه وافياً بذلك الغرض كل الوفاء، فهو لا يغادر ناحية من النواحي في هذا المجال إلاَّ وبيَّنها للإنسان، وإن نحن رجعنا إليه في تنظيم المجتمع من الناحية الاقتصادية وجدناه قائماً على أكمل الأسس التي تضمن للفرد الحرية الشخصية في إدارة عمله ولا تحرمه من نتائج جهوده وبذلك يزيد الفرد في بذل المجهود اعتماداً منه على أن نتائج عمله راجعة إليه وهو إلى جانب ذلك يأمر بالزكاة التي تنتشل ذوي الدخل المحدود من الفاقة وتعطي رؤوس المال لذوي البطالة العاطلين عن العمل، وبذلك تدور عجلة العمل وتنشط الحياة الاقتصادية في المجتمع. فإذا قرنت نظام الزكاة إلى نظام العمل الحر والتشجيع على الديْن الخالص من الربا المطلوب به وجه الله وتحريم الربا بشتى أنواعه وبأية نسبة كانت، ذلك الربا الذي ما خالط حياة اقتصادية إلاَّ وكان سبباً في بث الفقر والبؤس وإشاعة الفاقة في طبقات الأمة، ثم إذا أنت نظرت إلى تلك الأصول التي وضعها القرآن الكريم

لرأيتها هادفة إلى الحفاظ على حقوق الدائن والمدين والتأمين على مالهما من حيث كتابة الديْن وبيان الأجل ونوع المال وإقامة الشهود وبيان عددهم ونوعهم أو أخذ الرهان عند عدم وجود من يكتب الديْن إلى غير ذلك من الأصول وذلك في آية الديْن بنهاية سورة البقرة، لوجدت أن القرآن في كل ناحية من النواحي الاقتصادية قائم على كمال الكمال.

إن القرآن الكريم لم يترك دائرة من الدوائر ولا ناحية من النواحي الاجتماعية إلاَّ وعني بها ولفت نظر الإنسان إليها بادئاً من أصغر حجيرة من حجيرات المجتمع وأعني بها الأسرة حتى آخر دائرة من دوائره وأعني بها المجتمع الإنساني عامة. فالفرد على حسب ما يُشير إليه القرآن الكريم عضو في المجتمع الصغير الذي هو الأسرة، وعليه تجاه هذا المجتمع واجبات وله حقوق. إن الأب في الأسرة راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والزوجة راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، وللأولاد على الأبوين حقوق كما عليهم تجاههما واجبات. ولقد وصَّى الله تعالى الإنسان بوالديه حُسْناً وحضَّه على الإحسان إليهما وأمره بأن يخفض لهما جناح الذل من الرحمة وأن يدعو لهما وفاء بحق ما أسدياه إليه من المعروف في صغره وما بذلاه من الجهود في سبيل تنشئته وتربيته.

وللرجال على النساء حقوق ولهم واجبات ، وللنساء حقوق وعليهن واجبات، وإذا أنت تتبعت هذا الموضوع وجدت أن للأسرة في القرآن الكريم أنظمتها وقوانينها التي تضمن سعادة كل فرد من أفرادها وتحفظ لهم حقوقهم جميعاً، وتصون تلك الروابط التي تربط أفراد الأسرة بعضهم ببعض برباط الولاء والوفاء

والمحبّة منذ أول خطوة من خطوات تشكُّل هذه الأسرة وولادتها الاجتماعية حتى آخر نقطة من نقاط وجودها.

ويؤيد هذا ما ورد في القرآن الكريم والآيات بخصوص خطبة النساء والمحلَّلات والمحرَّمات وعقد النكاح والولي الذي بيده عقدة النكاح والمهر، وحسن المعاشرة وبناء عقد النكاح على نيّة دوام البقاء وأن ما سوى ذلك سِفَاحْ وكذلك ما ورد من الآيات فيما يتعلَّق بالعدَّة وأحكامها الخاصة بالمتوفى عنها زوجها، وعدة المطلَّقة إن كانت حاملاً أو كانت صغيرة أو كبيرة بالسن أو يائسة من المحيض، والبيت الذي يجب أن تعيش فيه المطلَّقة، وأحوال تأديب المرأة الناشز، والوسائل التي يجب أن يتدرَّج بها الرجل مع زوجه في التأديب، ثم الأصول الواجب اتِّباعها في حال عدم إمكان بقاء الأسرة وكون بقائها واستمرار الحياة الزوجية أشد ضرراً من انحلالها وهو ما سمَّته الآيات بالطلاق.

وللطلاق في مثل هذه الأحوال الاضطرارية أصوله ومراحله المتتالية كما لا بد قبله من تشكيل هيئة تحكيمية وهو لا يتم ويثبت إلاَّ بعد انقضاء مدد معيَّنة ولا يكون نهائياً ولا أبدياً إلاَّ بعد مروره بمراحل وأدوار. وهناك آيات تبيِّن ما يجب من المتاع للمطلَّقة، وما يجب من المتاع والنفقة للمتوفى عنها زوجها وما يجب على الورثة تجاهها من حقوق، وهنالك آيات تتكلَّم عن الرضاع بشكل يضمن حقوق الصغير ومصلحة أمه، إلى غير ذلك من الآيات التي تبيِّن حرص القرآن الكريم على هذا المجتمع الصغير وسعيه في إقامته على دعائم متينة لا تدع مجالاً لانحلاله أو فساده.

وقد تجاوز القرآن حدود الأسرة وتخطاها إلى تمتين روابط الإنسان مع ذوي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب، وجاوز حدود ذلك أيضاً، فما فرَّق في وجوب

الإحسان بين قريب وبعيد، بل أمر بالإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، وإنه ليسمو بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية حينما يعتبره عضواً في المجتمع الإنساني الكبير، فيبيِّن له أن أفراد النوع البشري هم جميعاً ذوو قربى. فما المجموعة البشرية إلا أسرة واحدة نسلت من أب وأم واحدة وهم جميعاً أخوات وإخوة، وقد جعلهم الله شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وما على الإنسان العاقل الرشيد الذي عرف ربَّه وهُدي إلى صراط مستقيم إلاَّ أن يُعامل البشر جميعاً بالإحسان. وإنه ليُفرض عليه أن يعامل عدوه حينما يقع في قبضته ويتمكَّن منه كما يُعامل أقرب الأقربين إليه، قال تعالى: ﴿..ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وإنه ليتسامى الإنسان مرهفاً طباعه ومرقِّقاً مشاعره تجاه ذلك الخصم، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

أي: ليس يظفر بمرتبة الإحسان إلى العدو إلاَّ ذو حظ عظيم.

على أنه لا يفرط باللين مع العدو إلى درجة تجعل الإنسان يخرج عن حدود العزة والكرامة، بل يطلب منه أن يقف تجاه خصمه موقف حكمة رائدها المصلحة الإنسانية فلا يريد له أن يقيم على ذل.﴿..وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ..﴾[2].

ويطلب منه أن ينتصر إذا أصابه البغي.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾[3].

﴿..فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ..﴾[4].

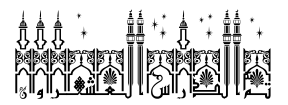
---

[1] سورة فصلت: الآية(٣٤ـ٣٥).
[2] سورة المنافقون: الآية(٨).
[3] سورة الشورى: الآية (٣٩).
[4] سورة البقرة: الآية (١٩٤).

ثم يتسامى به إلى درجة العفو والإحسان فيقول تعالى:

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ.. ﴾[1].

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].



[1] سورة الشورى: الآية (٤٠).

[2] سورة الشورى: الآية(٤٣).

الأسئلة:

١) بماذا أمر الله تعالى الناس جميعاً؟.

٢) ما الذي يحصل عليه الإنسان إذا جال بفكره بآيات الذكر الحكيم؟.

٣) عدِّد بعض النواحي الاقتصادية التي تجعل المجتمع الإنساني يعيش سعيداً إن هو طبقها.

٤) عدِّد بعض نواحي اهتمام القرآن الكريم بالأسرة.

٥) بماذا يجب على المؤمن أن يعامل عدوه إن هو وقع بيده وتمكن منه؟.



علوم القرآن وتوافقها مع فطرة النفس البشرية

مما يلفت النظر في القرآن الكريم ما جاء به من التشريع المتكامل في تنظيم شؤون المواريث وأصول تقسيم التركات، فقد بيَّن ميراث الأولاد من أبيهم في أحوالهم المختلفة كما لو كانوا ذكوراً وإناثاً، وفي حال انفراد الإناث وعدم وجود الذكور، وفصَّل في هذه الناحية مبيِّناً نصيب البنت الواحدة والاثنتين فما فوق ذلك، كما بيَّن ميراث الأبوين من ابنهما المتوفى في مختلف الأحوال عند وجود ولد وارث وعند عدم وجود الولد، وبيَّن حصة الأم إن كان للمتوفى أخ، وقد بيَّن أيضاً نصيب الزوج مما تركته زوجه إن كان لها ولد ونصيبه إن لم يكن لها ولد، وقد بيَّن بالمقابل نصيب الزوجة مما تركه زوجها في كلا الحالين. وتعرَّض لميراث الأخ من أخته في حالة خاصة سمَّاها بالكلالة أي: عند عدم وجود الفرع الوارث كالابن وابن الابن وعدم وجود الأبوين والزوج، وبيَّن أيضاً ميراث الأخت من أخيها في مثل هذه الحالة وبيَّن حقوق اليتامى وميراثهم قبل كل بحث من بحوث المواريث.

وهكذا فإذا أنت بحثت تشريعه في هذه الناحية لوجدت أنه لم يغادر حالة من حالات المواريث إلاَّ وبيَّنها بصورة تضمن حق كل واحد من الورثة على حسب درجته من القرابة وعلى حسب الأعباء التي تقع على كاهله من حيث الواجبات المالية والنفقات المكلَّف بها تجاه أقاربه وذويه.

وتفصيلاً لهذا القول وإشارة إلى بعض هذه النواحي نضرب لك مثلاً على هذا فنقول:

لقد جعل القرآن الكريم نصيب الابن الذكر من أبيه ضعف نصيب البنت وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ.. ﴾[1].

وإنك إذا تعمَّقت باحثاً عن سر هذا التشريع وجدته قائماً على أساس متين من الحق والعدالة، فالأعباء التي تقع على عاتق الذَّكَر أكبر من الأعباء التي تقع على الأنثى. فعلى الذَّكَر النفقة على العيال بخلاف البنت، إذ تقع نفقة أولادها على أبيهم وليس عليها شيء من ذلك، وعلى الذَّكَر أيضاً إذا أراد أن يتزوج أداء المهر لزوجته والنفقة وعليه المتاع بالمعروف لزوجه المطلَّقة.

أما البنت فإنما تستوفي المهر ولها النفقة والمتاع من زوجها وليست مكلَّفة بشيء من ذلك. وعلى الذكر واجب الإنفاق على الأبوين وليس على البنت هذا الواجب وعليه أيضاً النفقة على الأقارب إذا عجزوا عن العمل لعلّة أو عاهة أو هرم وليس على البنت نفقة. وهكذا فبمقابل هذه الأعباء خصَّ القرآن الكريم الذكر بمثل حظ الأنثيين من الميراث.

وبنظرة بسيطة إلى ذلك تجده قد حقق كل العدالة في هذا التقسيم. ويطول بنا الشرح إذا أردنا أن نتعرَّض لنصيب الأم من الميراث وكونه يتراوح بين السدس والثلث ونزوله من الثلث إلى السدس في حال وجود الأخوة وكذلك الزوج في كون نصيبه ينتقل من النصف إلى الربع في حال وجود ابن للزوجة المتوفاة وكذلك في حال تناقص نصيب الزوجة من الربع إلى الثمن.

---

[1] سورة النساء: الآية (١١).

وإنك إذا تعمَّقت باحثاً في كل نقطة من هذه النقاط وجدت الحق ظاهراً بيِّناً وتمثَّلت لك العدالة في أجلى مظاهرها وأسمى معانيها. وكما نظَّم القرآن شؤون المواريث، فقد وضع أصولاً للوصايا ومنح الإنسان حقّاً في الإيصاء بنصيب من ماله لذوي الحاجة من أقاربه وغيرهم وفصَّل في بيان الأصول الواجب اتِّباعها في حال السفر عند إقامة الشهود تثبيتاً للوصية وردّاً للإنكار، وتعرَّض لبيان الواجب الذي يقع على الوصي المكلَّف بتنفيذ الوصية ومنحه الحق بالإصلاح بين الورثة وذلك بتعديل الوصية إذا وجد فيها حيفاً أو جوراً وميلاً عن الحق إلى غير ذلك من الأصول والتشريعات التي تضمن الحق وتجعل الإنسان مطمئناً إلى ما أوتيه من نصيب من المال لما يراه في ذلك التقسيم من حق وعدالة ورعاية للمصلحة الخاصة والعامة.

ولا تظنن أن ما أوردناه هو كل ما جاء به القرآن الكريم من التشريع، بل هنالك نواحٍ أخرى تعرَّض لها القرآن كالتشريع الجزائي والدولي. وقد تكلَّم عن الجهاد والأصول التي ترتكز عليها الدعوة إلى الله وتبيِّن المراحل الواجب اتِّباعها لإنقاذ البشرية من جهلها، وتحدَّث عن الحرب والسلم وأصول الهدنة والمعاهدات، ثم إنه أفاض في بيان الأخلاق التي يجب أن يتحلَّى بها الإنسان والتي تجعل منه شخصاً كاملاً وإنساناً إنسانياً وأتى على ذلك بأسلوب يذكِّي مشاعر الإنسان ويجعله يعشق الفضيلة والكمال.

وبصورة عامة جاء القرآن بكل ما يلزم هذا الإنسان منفرداً ومجتمعاً في سائر أحواله وأوضاعه من سلم وحرب وصحة ومرض، ويسر وفقر، وإقامة وسفر، وما ترك أمراً من الأمور إلاَّ وبيَّنه لهذا الإنسان على الوجه الأمثل والوضع الأكمل.

ولو أراد امرؤ أن يحصي الفوائد التي يجنيها من وراء تطبيق أمر واحد من أوامر القرآن أو الحِكَم التي ينطوي عليها الأمر، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾** ﴾[1].

ومما امتاز به هذا القانون الإلٓهي من دون كل قانون هو أنه لم يكتفِ بأن بيَّن لهذا الإنسان ما يجب أن يفعله وما يجب أن ينتهي عنه ولم يقتصر على وضع الأنظمة والقواعد والتشريعات. فإن الأنظمة والقوانين لا تأت بالثمرة المطلوبة إذا لم تكن الأنفس متهيئة لقبولها، وسرعان ما يحاول الإنسان التخلُّص منها إذا لم تتجاوب نفسه معها ولذلك فإن القرآن الكريم إنما وضع إلى جانب الأنظمة والتشريعات الكاملة أصولاً خاصة تهذِّب النفس وتتسامى بها إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني بسلوكه طريق الإيمان الذاتي كما سلك أبونا إبراهيم عليه السلام، وبذلك تجد هذا الإنسان مستعداً لتقبُّل تلك الأنظمة راغباً بها وتراه لا يطمئن قلبه ولا تسعد نفسه إلا بتطبيقها والسير عليها، حتى إنك تجده إذا تسامت نفسه إلى ذلك الكمال يطبِّق تلك الأنظمة بصورة عفوية ولو لم يكن له علم بها، فإذا سمع شيئاً منها تذكَّر ما يجده في نفسه من مشاعر موافقة ومطابقة لها.

وقد أفاض القرآن الكريم في هذه الناحية وأعني بها تلك التي تهذِّب النفس وتسمو بها إفاضة تامة فأرشد الإنسان إلى الطريق الحقيقية التي تصل به لتلك الغاية السامية، إذ عرَّفه بخالقه ومربِّيه وبيَّن له أنه لا يمكن أن يصبح إنساناً كاملاً ما لم يصل إلى الإيمان بلا إلٓه إلا الله فيعلم أن سيْر الكون عائد إليه سبحانه، فلا

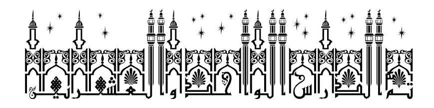
---

[1] سورة لقمان: الآية (٢٧).

يقع واقع إلاَّ بأمره ولا يمكن لشيء أن يقارن شيئاً أو يشفع به إلا بإذنه، فهو الخالق والمربِّي، وهو المتصرِّف والمسيِّر وإليه وحده تؤول أمور الكون كله في الخلْق والتربية والرزق والسير والتصرُّف، وبه تعالى الحياة.. حياة الكون وقيامه.

وقد ألحَّ القرآن على هذه النقطة إلحاحاً كبيراً وساق من القصص وضرب من الأمثال وأورد من الآيات الدالَّة على التربية والتسيير الإلٓهي ما يُثير اهتمام الإنسان ويبعث تفكيره إلى الوصول لتلك المعرفة. وبما أن الاهتمام لا يتولَّد، والتفكير لا ينبعث من جموده ولا ينطلق باحثاً عن معرفة الله إلاَّ إذا رغبت النفس عن هذه الدنيا الدنية وعاينت انقضاءها السريع ونعيمها الزائل، ولذلك فإن القرآن كثيراً ما يُذكِّر الإنسان بالموت، ويحذِّره من الانغماس في الشهوات والاسترسال في الطغيان، وإنه ليضع بين أيدينا مُثُلاً واقعة عن الذين خلوا من قبل ويرينا نتائج أولئك المعتدين الذين آثروا الدنيا وشهواتها فمُزِّقوا كل ممزَّق وأصبحوا أحاديث. وهكذا فما من قانون جاء ولا يمكن لقانون أن يأتي بمثل ما جاء به القرآن الكريم، وما من قانون جمع بين التسامي بالنفس وتهذيبها، وبين الأنظمة والأصول الواجب عليها اتِّباعها وتطبيقها سوى القرآن الكريم.

ولئن اجتمعت البشرية كلها، ولئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. أفليس هذا دليلاً بيِّناً وبرهاناً كافياً على أنه كلام الله، وأن الذي جاء به إنما هو رسول الله ﷺ وأنه لم يبلغ امرؤ من الكمال الإنساني والقرب من الله مثل ما بلغه رسول الله ﷺ حتى أنزله الله تعالى عليه واختاره ليكون مبلِّغاً لرسالته.



الأسئلة:

1) ما الحكمة المنطوية وراء أن يكون نصيب الذكر من الإرث ضعف نصيب الأنثى؟.
2) لماذا نرى المؤمن يسعى بشغف لتطبيق أوامر الله تعالى؟.
3) لماذا يحرص القرآن الكريم على تذكير الإنسان بالموت؟.
4) ما هو الطريق الذي سلكه أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام للوصول إلى الله تعالى؟.

❖❖❖

الفصل السادس

١) قوانين القرآن الكريم في تربية النفس والمجتمع.

٢) فلسفة الحجاب في الإسلام.

٣) قصة الحجاب وإسلام المرأة الفرنسية.



الدرس الثاني والعشرون:

قوانين القرآن في تربية النفس والمجتمع

لقد وصلت البشرية قبل بعثة الرسول ﷺ إلى درجة لم يبقَ منكرٌ من المنكرات إلاَّ وقد عرفته ووقعت فيه، لذلك جاء القرآن محذِّراً من جميع تلك المفاسد ومفصِّلاً تفصيلاً دقيقاً لا يمكن لشخصين أن يختلفا في معرفة ذلك الشيء المنهي عنه ما دام كل منهما يطلب الحق وينشده ويسعى إليه.

ومن الأمثلة على ذلك:

لقد أعطى القرآن الكريم الأشياء المسكرة التي تكون سبباً في تعطيل الفكر واحتجاب الوعي اسماً جامعاً لكل ما تتحقَّق فيه تلك الصفة فسمَّاها خمراً، لأنه بتعطيله الفكر عن عمله يخمر الوعي ويستره. ومنه **الخمار**، الذي تضعه المرأة على وجهها حين تريد الخروج فيستر وجهها، وقد فقه ﷺ سر هذه التسمية وأدرك المراد الإلٓهي وهو خير من يُدرك فقال ﷺ موضِّحاً ومبيِّناً: «**كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام...**»[1].

فجعل الإسكار سبب التحريم آخذاً من كلمة خمر، ناظراً إلى سر التسمية فلم يقتصر ﷺ على ظاهر الاسم، وهكذا فالبيرة والنبيذ والأفيون والحشيش والويسكي

(1) الجامع الصغير رقم /٦٣٧٢/ (حم م ٤) عن ابن عمر.

والشمبانيا والفودكا والكونياك وسائر الأشياء التي تنطبق عليها صفة الإسكار كل ذلك خمر. والخمر: هو الستر والحجاب، فكل ما يحجب الفكر ويعطله فهو خمر محرَّم شمل ما ذكرناه الآن من مسكرات تنوعت أسماؤها.

وسمَّى القرآن أخذ المال من الناس فائضاً وزائداً عن الحق "ربا" وأطلق عليه هذه اللفظة المأخوذة من: ربا، بمعنى: زاد، لتشير إلى أن كل كسب زائد عن الحق غير مشروع مهما اختلفت الأسماء وتباينت المسمَّيات وهكذا.. فلو أقرض إنسان آخر مالاً واشترط عليه أن يهديه متاعاً أو يسكنه داراً أو يسمح له بالتصرُّف في حقل إلى غير ذلك مما يحتج الناس الآن في تسميته تخلُّصاً من الحرمة والعقوبة فهو في الحقيقة ربا، لأنه ربا وزاد عن أصل الديْن.

ولو ابتاع رجل من آخر بضاعة بسعر يزيد عن السعر الحاضر وهو ما يسمُّونه "ببيع الوعدة" فذلك الثمن الزائد ربا ولو سمَّياه بيعاً.

ولو أن رجلاً باع آخر متاعاً وطلب منه سعراً يزيد عن السعر الشائع المشهور ظنّاً منه أن البيع إنما هو حنكة ومهارة فهذا الثمن الزائد أيضا ربا.

وقد أشار ﷺ إلى ذلك بقوله الكريم: **«غُبن المسترسلِ حرام»**[1].

«غُبنُ المسترسلِ ربا»[2].

والمسترسل هو الذي لا يعرف سعراً للبضاعة فاستسلم للبائع ووثق بكلامه.

وقد جمع ﷺ صنوف الربا في القرض بكلمة واحدة بيَّنت سر التشريع أخذاً وفقهاً من كلام الله وما أرجح فقهه وأعظم عقله:

---

(١) الجامع الصغير (٥٧٨١) (هق) عن أنس.

(٢) الجامع الصغير (٥٧٨٢) (هق).

«كلُّ قرض جرَّ منفعةً فهو رباً»[1]. وعلى ذكر شمول القرآن بكلمة واحدة معاني عدّة تجتمع كلها في كلمة واحدة نستطيع أن نضرب لك المثل الآتي أيضاً فنقول:

لقد سمَّى القرآن محاسن المرأة التي زيَّنها الله تعالى بها من جمال وجه وعينين وفم وأسنان وشعر وصبا وفتوة وشباب إلى غير ذلك من المفاتن **زينة**، وبما أن إظهار هذه المحاسن لغير الزوج أو الأب والأخ والابن ومن سواهم من المحارم الذين عدَّدتهم الآية الكريمة يكون سبباً في وقوع الفتنة والفساد في الأرض، كالتحبيب بالزنا، ويبعث الشقاق والكراهية بين الرجل وزوجه بعد أن رأى من هي أجمل منها وجهاً وأوقع في نفسه منزلة ومكانة. لذلك وقطعاً لدابر الفساد في الأرض، وحرصاً على الأسرة وسعادتها، ودرءاً لعوامل الانحلال والضعف من التسرُّب، أمر الإسلام بعدم إبداء هذه المحاسن لغير المحارم فقال تعالى:

﴿..وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ..﴾.

وأمر تعالى المرأة الشابة أن تمشي مشية عادية لا يظهر معها في الطريق ما زيَّنها الله تعالى به من فتوة وشباب، لأنها بالإسلام متسترة كلها، قال تعالى:

﴿...وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[2].

---

(١) الجامع الصغير (٦٣٦١) (الحارث) عن علي.

(٢) سورة النور: الآية (٣١).

وهكذا فجميع محاسن المرأة التي زيَّنها الله تعالى بها والتي هي موضع فتنة الرجال إنما جمعها الله تعالى بكلمة واحدة فقال: ﴿..زِينَتَهُنَّ..﴾ ومنع من إبدائها بكلمة ﴿..وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ..﴾ حرصاً على سعادة المجتمع وسلامته.

وإذا كان أناس يذهبون في تأويل هذه الآية مذاهب بعيدة عن المراد الإلٓهي فيقولون يجب على المرأة أن تخفي شعرها ولا تظهر إلا وجهها ويُسمُّون ذلك بالسفور الشرعي، فضلال ذلك التأويل ظاهر بيِّن، فإن الوجه والعينان قد تذهب بلبِّ الناظر وتأخذ بقلبه أكثر من الشعر، فمن الضروري والحالة هذه ستر الوجه مثل الشعر.

وإذا كانوا يزعمون أن الزينة هي الصباغ والطلاءات التي توضع على الوجه فتكسبه حمرة وبريقاً فذلك أيضاً خطأ وليست الزينة المعنية في الآية الصباغ والطلاءات، لأنه قد تجتمع امرأتان، حسناء جميلة الوجه منحتها القدرة الإلٓهية من بريق الوجه واصطباغه بحمرة النشاط والحيوية ما يغنيها عن الطلاءات والأصباغ، وأخرى دميمة قبيحة صبغت وجهها بالأصباغ وأكسبته بريقاً بالطلاءات فما زاده ذلك إلا دمامة وقبحاً. فيا ترى أيهما يؤثِّر بالنظر إليها في قلب الناظر، الحسناء التي زيَّنها الله تعالى بجمالٍ من عنده، أم الدميمة التي زيَّنت وجهها بالأصباغ؟. وهل الزينة ما تُزيِّن المرأة نفسها، أم ما زيَّنها الله به من المحاسن؟.

لا شك أن المعنى أضحى جلياً واضحاً، وكلمة ﴿..وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ..﴾ إنما يتعين معناها وينصرف قطعاً إلى ما زيَّن الله تعالى به المرأة من محاسن في الوجه والأعضاء مما يكون إظهاره موضعاً للفتنة وسبباً للفساد وما سوى ذلك لا تتأمَّن معه المصلحة ولا ينقطع دابر الفساد، وحاشا لله أن يأمر بأمر فيه مجال لمعترض أو مبعث لفساد.

وإذا كان الله تعالى لم يسمح للمرأة على حسب الآية التي ذكرناها بأن تُبدي زينتها إلاَّ للنساء المؤمنات خوفاً من أن تنقل الكافرة التي لا أمانة لها محاسن المرأة إلى الرجال من غير المحارم وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿..**أَوْ نِسَآئِهِنَّ**..﴾.. فهل يجوز للمرأة ذاتها أن تُبدي وجهها لغير المحارم من الرجال؟.

إن هذه المعاني جلية واضحة لا مجال فيها لأخذ ورد، لكن عدم تدبُّر الناس آيات الله جعلهم يقعون فيما وقعوا به من ضلال في الفهم، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا، وضلُّوا عن سبيل الله، ورسول الله ﷺ يقول: «**أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»[1].

ومما يدلُّك على سعة القرآن ووضوحه وكونه مهيمناً على غيره من الكتب ومتوافقاً مع حاجات الإنسان على كرِّ العصور والأزمان ما جاء به من آيات تنهى بكلمة واحدة عن أشياء جمّة تشمل كل ما عرفه الإنسان قديماً وما سيتعرَّف إليه مهما امتد به الزمن وساعد عليه الاختراع مما يبعث الفتنة في الأرض ويسوق إلى الفساد، كل ذلك جمعه تعالى بكلمة واحدة فقال جلَّ شأنه: ﴿..**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ**..﴾[2]. إذ جمع بكلمة ﴿..**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ**..﴾ كل قول أو عمل أو مُخْتَرعٍ يُقرِّب من الفاحشة، وهكذا فالملاهي بأنواعها كدور السينما والخلاعة وسماع الآلات الموسيقية والأغاني المثيرة وبصورة عامة كل ما من شأنه أن يبعث الفتنة أو يقرِّب من الفاحشة منهي عنه، جمعته كلمة ﴿..**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ**..﴾.

---

(١) الجامع الصغير /ت/ ٢٥٦٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية(١٥١).

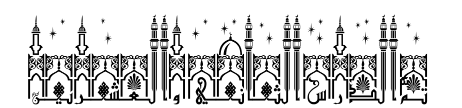
وهكذا فما فرَّط الله تعالى في القرآن الكريم من شيء، لكنه دقَّ عنه فهم من دقَّ، وعرفه من عرفه. وقد أدركه ﷺ كله بإقباله العالي على ربِّه وشهد له ربُّه تعالى بذلك فقال:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾[1].

أي: ومن عنده علم الكتاب مثلي، ومن الذي فهم كلام الله مثل فهمي؟.

ولذلك أمرنا الله تعالى باتِّباع هذا الرسول الكريم واقتفاء أثر هذا السيد العظيم فقال تعالى:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾[2].



(1) سورة الرعد: الآية (٤٣).

(2) سورة المائدة: الآية (٩٢).

الأسئلة:

١) لو أقرض شخص إنساناً آخر بعض المال واشترط عليه أن يسكنه داراً أو أن يسمح له بالتصرف بأرضه أو غير ذلك فهل يجوز ذلك؟.

٢) لماذا أطلق القرآن تسمية الزينة على محاسن المرأة؟.

٣) ما الحكمة المنطوية من وراء منع اختلاط الرجال بالنساء، وإلى أي شيء تؤدي مخالفة هذا الأمر الإلّهي؟.

٤) اشرح الحديث الشريف .. «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام...».

٥) لماذا أمر تعالى المرأة الشابة أن تمشي مشية عادية لا يظهر معها في الطريق ما زيَّنها اللّٰه تعالى به من فتوة وشباب؟.



الدرس الثالث والعشرون:

فلسفة الحجاب في الإسلام

قبل الدخول في بحث فلسفة الحجاب (هذا الأمر الذي شغل الناس في زماننا) نلقي نظرة سريعة على الزواج في المجتمع البشري وعلى الطريق الأخرى والتي هي الزنى.

آـ الزواج: هو واضع القواعد الاجتماعية الأولى لأنه مؤسس الأسرة وهي كما نعلم الحلقة الأولى من حلقات المجتمع الكبير، وهو أيضاً وسيلة لإنشاء حياة جميلة يغمرها العطف والود، وإن نشوء البنين والبنات في الوسط العائلي يسقيهم العواطف الرقيقة منذ أيامهم الأولى وينمّي فيهم المشاعر الودية التي تُعدّهم لحياة مقبلة تشيع فيها الرحمة والرأفة. ولولا الزواج لانقرض النوع الإنساني منذ أمد بعيد، فاتصال الحياة واستمرارها على هذه الأرض يقتضي إذاً ازدهار الزواج وبقاءه.

ب ـ الزنى: على أن الزنى يعمل عملاً عكسياً للغاية، فإنه باعث الفساد في المجتمع ومُشيع الفوضى ومبيد النسل. وإن الشاب يوم يندفع إلى الفاحشة إنما يمسك معولاً بكلتا يديه ويقوّض به دعائم الأمة.

هَبْ أنه اتصل عن هذا الطريق المنحرف بفتاة تصيَّدها، إنه سيقضي معها زمناً ولكنه سيملُّها عندما يرى مسحة جمالها تذوي بين يدي السنين ويهجرها إلى غيرها ويتركها على أبواب الهرم عرضة للشقاء والفاقة، وهي إذا استطاعت أن تجد عملاً

تسد به رمقها، ماذا سيكون مصيرها إذا أمست عاجزة عن العمل؟. ما أشد قسوة تلك الحياة وما أكثر آلامها في حرمان من الزوج والأولاد.

ج ـ الآثار الاجتماعية للزنى: وإذا شئنا أن نتعقّب الشاب الأعزب في مستقبله بعد أن تعوَّد الزنى فإننا نجد أحد حالين:

١ـ هجر الحياة الزوجية: بأن يبقى طوال حياته مستمراً في هذه الطريق القبيحة فلا ينعم بأسرة ولا يُساهم في إحياء المجتمع ويكون عرضة للأمراض المنبعثة عن هذه الحياة، ومعولاً هدَّاماً لسعادة كل امرأة يتصل بها. فإذا انقضى الشباب وجاء المشيب لم يجد هذا العابث إلى جانبه ولداً معيناً ولا قريباً حبيباً، عندها يدخل في الأحزان ويكتوي بنار الشقاء في مساء حياته المظلم.

٢ـ الفتور والملل: أو أنه يسعى إلى الزواج يوم تبدأ نضارته نحو الذبول، إنه بعد عهد طويل قضاه في أحضان الغانيات لا غروَ إذا عزم الزواج أنه سينتقي حسناء ولكن هذه الغادة التي اختارها في مقتبل عمرها لن تكون سعيدة إلى جانبه وهو قد سلخ من العمر شوطاً كبيراً.

إن زوجاً في الصبا والجمال لن تعجبها الحياة مع زوج في مساء الشباب وسوف تمدّ عينها إلى رجال هم أوفر صحة وشباباً، فإذا هي بين عشية وضحاها تسير إلى الزنى وتجتذبها الهاوية، وستُنجب لزوجها الشرعي أولاداً غير شرعيين، فإذا مات الأب قاسموا إخوتهم من أمهم ميراثهم وشاع الفساد في هذا البيت البائس المتصدع.

هذا وإن كبحت تلك الزوج الشابة جماح شهوتها وصبّرت نفسها ولم تسلك طريق العهر فإن أمانيها تظل في الكبت ونفسها في الحزن وناهيك عن الدمار الذي سيصيب أطفال تلك الأسرة، إنهم يرثون عن الصلة العاطفية الواهية بين الأب والأم وهن التكوين، كما سنفصِّل بعد قليل.

وهكذا فلن تصفو للزاني والزانية حياة ولو دخلا في المستقبل في حياة زوجية شرعية، لذلك فستشيع في حياتهما السآمة والملل وتغمرهما الأحزان وتكوي قلوباً أفسدتها الرذيلة ولوثتها الجريمة.

٣ـ البؤس: هذا هو مصير الزنى، فهو مسبب البؤس لدى الجنسين في مستقبل الحياة، وهو مضعف النسل أو مبيده، وماحق الفضائل من آفاق الحياة، وماحي السعادة من صفحاتها، إنّ العدوان على الأعراض يرافقه على الأغلب عدوان يشمل كل الشؤون الاجتماعية الأخرى. فكم من فرق شاسع بين نتائج الحياة الزوجية وحياة العهر والفحش. في الأولى تترعرع الفضائل وتنمو المشاعر الرقيقة وينشأ الجو المشبع بالتوادد والتعاطف، وفي الثانية تسيطر الغرائز ويتدنى الإنسان إلى مستوى الحيوان، تُغيِّبُ الغرائزُ العواطفَ الإنسانية العليا والمستقبل فيه قاتم مقفر من عطف الأقرباء وعون الذرية.

السفور ونتائجه على المجتمع

ما يقرِّره الواقع أشدّ التقرير:

١ـ إن الغريزة الجنسية مركونة في كل كائن حي وإنها عرضة للإثارة عند معاينة الجمال والإطلاع على فتنة الجسد.

٢ـ إن الأخلاق إذا نمت وتكاملت لا تستطيع تدمير القوى الغريزية الجنسية، ولكن بإمكانها توجيهها نحو الخير، كذلك الأخلاق الكاملة لا تقوى على تبديل القوانين النفسية الراهنة.

هذه الملاحظات سوف نشير إليها في الوقت المناسب أثناء انسياب الموضوع التالي:

إن في السفور تدهور المجتمع نحو الرذيلة، وفيه التفكك لروابط الحياة العائلية، وهو مسبب الضعف في تكوين النسل وزارع بذور الجفاء والخصام والقسوة في البيت وناشئته.

وأخيراً إن السفور يبدِّد الرضا من نفوس الناس ويبعث سخطهم، وفي ظلال السخط لا ينمو إلا البؤس الإنساني والشقاء الاجتماعي، وإليك الشرح والإيضاح:

فلنبحث أولاً في آثار السفور في نفسية الشاب الأعزب والفتاة العزباء:

مهما قيل في تأييد السفور من زخرف القول فإن الواقع مكذِّبه، يقولون إن الأخلاق إذا تكاملت وغدت متينة لدى الجنسين فإن السفور عندئذ لا يسبب التدهور والانحلال، أقول: إن الأخلاق إذا نمت وتكاملت لا تستطيع تدمير القوى الجنسية، فالشاب الظامئ حين تلوح له وجوه صبيحة وتتحدّث إليه نفوس ناعمة بأصوات شجية لا يمكنه إلا أن يصبو إلى الحسان ويشوقه الجمال الفتَّان، وهذه هي الخطوة الأولى نحو الزنى، وقل الأمر نفسه عن الفتاة الظامئة، إنها ستهفو بنفسها نحو رفيقها الشاب، وإذا لم نشأ الآن أن نأخذ بعين الاعتبار ما يقدِّمه الواقع من نماذج فاحشة لنتائج هذه الاتصالات الاجتماعية الأولى فحسبنا أن نقول: إن هذه الصِّلات تبعث القلق في النفوس وتوقظ الأرق، وأنَّى للناشئة أن تستمر في بناء المستقبل والإخلاص للعمل والدراسة والوظيفة بعد أن دبّ في المشاعر طيف الحياة الجنسية، ونُصبت الحواجز، وطُرق باب الغريزة ودعاها الداعي إلى أمر نكر.

إن الغريزة عمياء لا تفرِّق بين خير وشر، ولئن قوي عليها الفكر بعد أن أيقظتها رؤية الحسان وأوثقها في العقال فذلك هو الكبت، وهو أكثر شراً وأدهى، قوتان تتصارعان في ساحة النفس قوة الغريزة الثائرة الجامحة، وقوة الفكر المميزة الواعية. فإن غلبت الواعية فقد دخلت النفس في عذاب الكبت وظلَّت الثانية في السخط حتى تجد طعاماً، وإن غلبت الأخرى فتلك الهاوية.

إن مجتمعاً يشيع فيه السفور لا تعرف الطمأنينة سبيلاً إلى أفئدة شبابه، إذ عوامل الإثارة نشيطة والانفعال الجنسي هائج، ويُرى في هذه الأوساط حيث يشيع السفور والعزوبة أن نوع المزاح قد أصبح غريزياً للغاية، وأن الأحاديث التي تستحب للترفيه عن النفس إنما هي أحاديث متصلة بمعالم الاتصال الجنسي أو ما يدور حوله، كل ذلك سعياً وراء إرواء الظمأ الغريزي الذي ألهبته فاجعة السفور.

وهل يستطيع أحد أن يعتقد أن اليد الإلّهية التي صاغت هذا الكون الرحيب المكتظ بأعاجيب الخلق وعظمة التكوين، هل يُعتقد أنها هي صاغت هذه النفوس على هذه الحالة من الفساد الذريع والتدني الشديد؟. لا!. إنها صاغتها طاهرة كريمة ولكن السبل التي سارت فيها أفسدتها، إن السفور يعرِّض الجنسين لفتنة النظر، والنظرات تسوق إلى الحديث وتزرع فيه تعابير التودد والغزل وما بعد ذلك إلا ظمأ محروم يقود إلى السُّقيا من أحواض الدناءة والعهر.

آثار السفور على طبقة المتزوجين:

إن العُرى التي تربط بين قلوب الرجال وأزواجهم تأخذ في الانحلال شيئاً فشيئاً في المجتمع السافرة نساؤه.

إن المتزوج وإن كان في شبع جنسي سوف تتطلع نفسه حين يرى نساء أوفر جمالاً من زوجته وأعذب حديثاً وأكثر رشاقة، وإن قويت أخلاقه على صيانته من الانحراف فإنها لن تقوى على منعه من التمني والتحسُّر، إنه سيتمنى زوجة كالتي تطلَّع إليها رشاقة وجمالاً، ويزيد التمني مع الأيام مع مزيد الإطلاع على السافرات الحسان، هنالك تنقلب تلك الأماني حسرات في نفسه ويغدو ساخطاً على حظه البائس، وقل الأمر نفسه على زوجته التي شاهدها الرجال وشاهدت

الرجال، لا بدَّ أن تلقى رجلاً تتوافر فيه عناصر تميزه وترفعه فوق زوجها بمراتب التفوق من وجوه كثيرة، إنها ستخطو الخطوة الأولى والثانية وأقصد التمني والتحسُّر.

لنركِّز الآن انتباهنا على تلك الأسرة سوف نرى ما يلي:

١ـ فتوراً في المحبة بينهما، إذ قلب كل منهما متعلق بغير رفيقه ولا يرى فيه إلا صاحباً قضى الحظ العاثر برفقته مدى الحياة، إن في هذه الدنيا أزواجاً كثيرين هم خيرٌ من هذا الزوج وفيها نساء كثيرات هنَّ أوفر حسناً من هذه المرأة، هذه هي الفكرة الثابتة التي سترتكز في ذهن كل من الزوجين في مجتمع السفور، وهي تضعف ولا شك من الروابط الجنسية والزوجية.

٢ـ وقد دلّت الأبحاث العلمية على أن هذا الفتور بين الرجل وزوجه ينعكس على الاتصال الجنسي أسوأ الانعكاس لأن فقدان المحبة المتأججة بين الزوجين يفضي إلى ضعف النسل ووهن في تكوينه الفيزيولوجي.

وإن المحبة إذا نشطت وكانت مكينة تُنتج خيراً كثيراً ساعة الاتصال الغريزي، إذ لها أشد التأثير في إنجاب أولاد أقوياء الأبدان، سليمي التكوين والعكس صحيح جداً. وإن هذه العلل من الضعف في البنية والوهن في التكوين الفيزيولوجي التي تنتاب الأطفال كثيراً إنما هي موروثة من الآباء بسبب الجفاء المتركِّز في نفوس الأبوين عند اللقاء.

٣ـ زد على ذلك إن أفول المحبة من سماء البيت يجعل الأولاد يترعرعون في وسط مقفر من الود وهذا ما ينعكس في نفوسهم الغضة ويغرس في قلوبهم وهم على عتبة الحياة بذور القسوة ويطبعها بطابع الخصام.

٤ـ وأخيراً إن السفور يبدِّد الرضا من نفوس الناس كما قلت ويبعث في قلوبهم السخط على الحظ والحياة وقد قيل: إن السعادة لا تتحقق في المجتمع إلا إذا توفر عنصر الرضا لدى أفراده، إذ النادب لحظه شقي ولو كان يتقلَّب في أحضان النعيم المادي، فلا شيء يبعث الهناء في الحياة كالرضا.

هـ الحجاب: والآن لنستمع إلى قوله تعالى وهو أعلم بقوانين العباد وسبل خيرهم وهو المحب الرحيم بهم يأمر بالحجاب ويبيِّن حكمته لنساء الرسول ﷺ اللواتي هنَّ قدوةً لنساء المؤمنين ليتبعوهنَّ: ﴿..**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ**..﴾[1].

ا ـ معنى الحجاب: هو حجب الرؤية كليّاً وانعدام المشاهدة.

وتوضح هذه الآية الإيضاح البيّن ذلك الحجاب، فلا ترتضيه إلا ساتراً لمحاسن المرأة كلها مما يشوق القلب ويلوثها بجرثوم الشهوات، ويبقى من المرأة حديثها الذي هو من وراء حجاب، قال تعالى: ﴿ **يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾** ﴾[2].

فالحديث رغم الحجاب الساتر والحائل دون رؤية الوجه الحسن يجب أن يكون جدِّياً للغاية حازماً لا يتطرق إليه وهن في اللهجة ولا نعومة في الصوت والعبارة ولا تطرُّف في الموضوع وقد أمر تعالى النساء أن يظللن في بيوتهن لأن فيها عملهن الثمين المنتج ألا وهو تربية البنين والبنات وإعداد جيل للمستقبل صحيح في الجسم والعقل، ولكن إذا اضطررنَ إلى الخروج فقد وجب عليهن صيانة للأخلاق العامة، ولسلامة

(١) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٣٢).

قلوب الناس جميعاً أن يتأدبن بالشرع الآتي، قال تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى..**﴾[1].

وأحب أخيراً أن أتلو آية كريمة من سورة النور تصف لنا ذلك النظام الاجتماعي الكامل الذي رسمه تعالى للحياة المثلى على الأرض.

﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)**﴾[2].

٢ـ آداب سير المرأة في الطريق:

ونرى من خلال هذه الآية آداب السير التي يجب أن تتحلّى بها المرأة في الطريق. فالخمار: إنما هو الغطاء الساتر مأخوذة من خَمَرَ، بمعنى: غطّى وستر، ومنها الخمر والخمرة لأنها تغطي الوعي وتسد الفكر وتستره، وعلى ذلك فالآية تأمر بإسدال الخمار المغطي للوجه على الجيب وهو العنق البادي من فتحة الثوب وما يتصل به من أعالي الصدر، كل ذلك حرصاً على ستر الجمال الذي سمّاه تعالى زينة، إذ الجمال هو الزينة الطبيعية للنساء، والصبا كذلك. فمن كانت لديه جوهرة غالية باهظة الثمن

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).

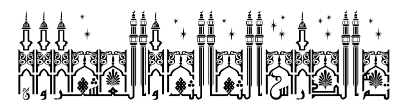
(٢) سورة النور: الآية (٣٠ـ٣١).

فهو يَعْمَدُ إلى إخفائها عن أعين الناس واللصوص لكيلا تُسلب منه وليحفظ ويحافظ على جوهرة قلبه النفيسة، وهذا ما يكشف عن قيمة المرأة وشأنها في الإسلام.

وفي ختام هذه الآية سنة أخرى من سنن السير في الطريق يجب على المرأة أن تعمل بها، ذلك أن الله تعالى ينهى أن تضرب المرأة برجلها لئلا يهتز جسمها وتظهر علائم فتوتها وصباها من وراء الثوب الفضفاض الساتر والخمار المسدل الحاجب، إذ هذا الاهتزاز في الجسم مما يُثير الشوق الغريزي لدى الرجال ويحرِّك داعي الشهوة الراقدة. وهنالك الدليل القطعي على أن جسم المرأة كله فتنة **والمرأة كلها عورة** كما قال رسول الله ﷺ: **«الفتنة نائمة لعنَ اللّهُ من أيقظها»**[1].

وفي رواية: **«الفتنة لا نرضى بها»**. أيضاً قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩** ﴾[2].

بهذا يتوضَّح الدليل القاطع أن وجه المرأة عورة لا يرضى الشرع بسفوره، إذ لو سمحت الآية هذه بكشف الوجه **(لعُرِفْنَ)** ولنقضنا هذه الآية الصريحة. هذه الآية شملت كافة نساء المؤمنين من القمة من نساء رسول الله ﷺ الطاهرات إلى كافة المؤمنات. فلو نظِّم المجتمع في هذه الناحية تنظيماً يتفق والشرع الإلٓهي لكان مجتمعاً تقدمياً حقّاً..



(١) الجامع الصغير (الرافعي عن أنس) رقم ٦٠٠٠.

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٥٩).

الأسئلة:

١) عرف الزواج.

٢) عدد بعض المصائب التي تلحق الشاب الزاني.

٣) ما هو المصير المرعب الذي يلم بفتاة صغيرة حين يتزوجها رجل أكبر منها سناً، وله ماضٍ مرعب بالزنى؟.

٤) هل تستطيع الأخلاق الفاضلة أن تدمر الغريزة الجنسية بنفس صاحبها؟.

٥) إلى أين يصل المجتمع السافرة نساؤه والمختلط بين الجنسين وما هى النتائج السيئة بذلك على الشباب؟.

٦) إلامَ يوصل الفتور الجنسي بين الرجل وزوجته؟.

٧) اشرح الآية الكريمة التالية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾[1] .

٨) اشرح كلمة (الخمار).

٩) ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام «الفتنة نائمة لعنَ اللّٰهُ من أيقظها»؟.



---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٥٩).

الدرس الرابع والعشرون:

قصة الحجاب وإسلام المرأة الفرنسية

إليكم القصةَ الرائعةَ الواقعيةَ والتي جرتْ حوادثُها بعهدِ الانتداب الفرنسي على سورية:
حُدِّدَ موعدٌ للاجتماع بين العلاَّمة محمد أمين شيخو، وبين رجل ذي مكانة اجتماعيةٍ وثقافية "دكتوراه" بزمن الكتاتيبِ ولا مدارسَ إذ ذاك، وكان الاجتماعُ يتعلَّقُ بتنصيبِ الأمير عبد المجيد حيدر ملكاً على سورية الكبرى بعهد الانتدابِ الفرنسيِّ عليها بضوءٍ أخضرَ من الحكومةِ الفرنسية إذ ذاك.

وباليوم التالي وفي الساعةِ المحددةِ، حضر العلاَّمة محمد أمين شيخو إلى بيت ذلك الرجل وقرع الباب، ففتحتْ زوجةُ الدكتورِ البابَ وطلبت منه الدخولَ "عن طريقِ ابنتها" لأنها ذاتُ جنسيةٍ فرنسية ولا تجيدُ اللغة العربية.

وحالما شعر العلاَّمة أنَّ امرأةً على البابِ أدارَ ظهرَه، فاضطرتْ لإعلامهِ بأن زوجَها اتَّصلَ منذ قليلٍ وأخبرَها بأنَّه سيتأخرُ عن الموعدِ عَشْرُ دقائقَ لأمرٍ مهم عند الجنرال سَرايْ المندوبُ السامي الفرنسي لسورية.

فهبط الدرجَ وانتظر في الشارعِ قربَ "الفيلْلا".

حضر الدكتور واعتذرَ عن تأخُّرِه، فأجابه إنسانُنا بأن التأخُّر مَدَّةُ عشرِ دقائقَ لا يُعتبرُ تأخُّراً إن حدث، بل ما بعد العشرِ دقائقَ تأخيرٌ، ثم دلفا البيتَ وجلسا في

الصالون، وقبل الحديثِ الذي من أجلهِ عُقِدَ الاجتماعُ وإذ بزوجةِ الدكتور تحضرُ لتجلسَ معهما بصحبةِ ابنتها.

نظر العلاَّمة محمد أمين شيخو إلى زوجها الذي يعلمُ بأنه لا يجالسُ النساءَ فالتفتَ الزوجُ ثم أطرقَ رأسَهُ ولم يجرؤْ على الكلام، لأنه شاهدَ زوجَتَهُ والغضبُ يكسو وجهَها، ابتدأتِ الحديثَ قائلةً:

بلغني عنك مسموعاتٌ عاليةٌ جداً في لبنانَ والآن شاهدتُ العكسَ تماماً "فهي والحالة هذه تذمُّه بقولها" مما اضطَّره لإجابتِها عن طريقِ ابنتِها.

فقال لابنتها: أرجو أن تُخبري أُمَّكِ بأنها "مجنونة".

وعندما أبلَغتْها ذلك النبأَ الصاعقَ ثارتْ ثائرتها.. لأن حدَّة الطبعِ من الصفاتِ التي يتميَّزُ بها الفرنسيونَ عن غيرِهم.. ونهضتْ ثائرةً تصرخُ:

أنا مجنونة؟.

قال لها: طبعاً... لأنَّ من يحكمُ على رجلٍ حُكْمَيْنِ متناقضينِ تماماً دونَ معرفتهِ والاجتماعِ به، أوَ ليس هذا بمجنون؟. فهل شاهدتني قبلَ الآن... لتَحْكُمي عليَّ هذينِ الحُكمين؟.

فأجابته: بلى، لماذا لم تدخلْ "الفيلْلاَ" عندما دعوتك للدخول...

ألست جميلة؟. مع أن زوجي يعلمُ أنني من فاتناتِ باريس، أم هلْ سمعتَ عني بأنني غيرُ شريفةٍ حتى إنك لم تدخلْ؟. فهذا زوجي أمامَكَ اسأَلهْ هل لاحظَ عليَّ شيئاً من هذا القبيلِ طيلةَ حياتي معه؟.

فأجابها إنساننا: أنا مسلم، ومن أُسسِ شريعتِنا الحَنيفيَّةِ أنَّ الرجالَ لهم مجالٌ والنساءَ لهن مجالٌ آخر والاختلاطُ عندنا محرَّمٌ.

فأجابت: أنتم المسلمون قد غالَيتُمْ كثيراً مع العلم بأن اليهودَ أقدمُ منكم في الدين وكذلك فإنَّ النصارى أقوى منكم، فمن أين أتيتُمْ بمسألة الحجابِ هذه؟.

فأجابها: وهل المسألة بالقِدَمِ أو القوة، أم بالمنطقِ والحجَّةِ والحق؟.

قالت: لا... بل بالحجَّةِ والبرهان.

قال: إذن، فاسمحي لي أن أبيِّنَ لكِ سببَ الحجابِ بين الرجلِ والمرأةِ في الإسلام:

إنني حين لا أجلسُ مع النساءِ، بل أجتمعُ بالجنسِ الخشنِ (جنس الرجال) طَوالَ النهار، ثم أعودُ من عملي إلى بيتي أرى زوجتي بنظري أجملَ النساءِ في العالم، فتزدادُ محبتي لها... كما تزدادُ وشائجُ الترابطِ قوَّةً بيننا، وهذا أمرٌ له شأنُهُ على نشوءِ أولادي، أي على الصعيدِ الأُسَري... وحين نختلطُ مع بعضنا أنتِ وأنا علماً بأنك أنتِ شريفةٌ... وأنا شريفٌ... فلا بدَّ أن فيك محاسنَ ومزايا رائعةً تميّزكِ عن زوجتي، هذه المحاسنُ التي لكِ لا بدَّ وأن أستهويها لكوني بَشَر، وعندما أعود إلى البيت أبدأُ بالمقارنةِ بصورةٍ لا شعورية بينَ ما رأيتُ واستحسنتُ من صفاتٍ كاملةٍ فيكِ أفتقدُها بزوجتي... فأندبُ حظي الأسودَ وأنسبُ الظلمَ لقسْمتي، لماذا كانتْ هذه نصيبي ولم تكنْ تلكَ ذاتُ الحسنِ والجمال أو الحديثِ ذي الجرسِ الموسيقيِّ أو الأناقةِ وخفَّةِ الروحِ والجاذبية، وهذا ما يُقلِّلُ من حبِّي لزوجتي فتسودُ الكراهيةُ بيننا بدلَ المحبَّةِ والإلفَة... فحينما تلاطفُني زوجتي كعادتها بكلمة "يا حبيبي" أشعر وكأنَّها تقولُ لي "ورصاص" لأن القلبَ قد تبدَّل، "وما جعلَ اللهُ لرجلٍ منْ قلبينِ في جوفِهِ"، فالحبُّ قد تحوَّلَ والنَّفسُ تميلُ مع الأجملِ أو الأفتنِ أو الأكثرِ جاذبيةً ورقَّة، عندها يسودُ التنافرُ بدل التعاون، والظلمُ بدلَ العدلِ، وقد تتحمَّلُ زوجتي معاملتي السيئةَ هذه مرةً أو مرتين ولكنْ لا بدَّ أن ينفد صبرُها وتتساءلُ بنفسِها ما سرُّ هذا الانقلابِ

العجيب الذي جعلهُ يُعاملني هكذا بالرغمِ من قيامي بواجباتي نحوَهُ ونحوَ أولادي وبيتي على الوجهِ الأكمل، فتثورُ ثائرتُها وتقابلني بالمثلِ، وهنا الطامَّةُ الكبرى، هنالك تتوترُ العلاقةُ بيننا وتبدأُ المشاحناتُ والخصوماتُ لأتفهِ الأسبابِ لأن النفوسَ قد تغيَّرت... وبسببِ هذا تتحوَّلُ الحياةُ إلى جحيمٍ لا يُطاقُ فيكون الطلاقُ الوسيلةَ الوحيدةَ للخلاصِ منه، ولا يحصدُ كلانا نتائجَ الطلاقِ السيئةِ فقط وإنما تنعكسُ أيضاً على الأولادِ الذين يفقدونَ في لحظةٍ من يرعاهُم ويحنو عليهِم، ليصبحوا مع أصدقاءِ السوءِ في الشارعِ "الملاذ الذي ينهلونَ منه ويتعلَّمونَ فنونَ الرذيلةِ والإجرام"، كما يحصلُ انشقاقٌ بين أفراد عائلتي وعائلَتِها، ولا يخفى ما لهذا الانحلالِ من أثرٍ سيِّءٍ على بناءِ المجتمع فيصبحُ المجتمعُ من جرَّاءِ السفورِ والاختلاطِ مُهلهلاً متفكِّكاً يَسهُلُ القضاءُ عليه، فهذا كلُّه إنما حصلَ نتيجةَ اختلاطِنا بعضنا ببعض بالرغمِ من كونكِ أنتِ شريفةٌ وأنا شريف.

هذا بالنسبةِ للرجلِ أما بالنسبةِ للمرأةِ فإنها من خلالِ اجتماعها برجلٍ غريب قد تستحسنُ فيه صفاتٍ جيدةً مثل: الحديثِ، المعاملةِ، الهيئة، المنصبِ.. الخ.. غير متوفرة في زوجِها، ويؤدي هذا مع مرورِ الزمنِ إلى النفورِ من زوجِها وبدءِ الخصوماتِ والمشاحنات.

ثم سألها العلاَّمةُ محمد أمين شيخو قائلاً: إن شاهدتِ فيَّ صفاتٍ حسنةً جميلةً... ألا تحبِّينَ أن تكونَ هذه الصفات متوفرةً في زوجِك؟.

قالت: أريدُ أن يكون زوجي أحسنَ مخلوقٍ في العالم.

قال: إذن.. وبفقدانِ هذه الصفاتِ من زوجِك فإنهُ سيصغرُ في عينِكِ وتتضاءلُ قيمتُهُ في نظرِكِ وسببُ ذلك كلّه اختلاطُك بغيرِهِ، حيث يدفعُكِ هذا الاختلاطُ لاستحسانِ

بعض الصفاتِ في الغيرِ والتي يفتقدُها زوجُكِ فيكون من نتيجتِها الاشمئزازُ والنفورُ بدلَ المحبةِ والسرور وتُفتَقدُ السعادة.

فما لبثتْ بعد أن سمعتْ هذا الكلامَ المنطقيَّ الذي هو بمثابةِ تحليلٍ علميٍّ لواقعِنا العمليِ أنْ أقرَّتْ بذلك ونظرتْ إلى ابنَتِها وقالت لها: أما الآن فأُريدكِ أن تكوني مسلمةً، ولكنْ كهذا الرجلِ لا كأبيكِ.

فطأطأَ زوجُها رأسَه خجلاً "لما تعرف عن سلوكهِ من ممارساتٍ تتناقض مع روحِ الرجلِ المسلم".

وبعد هذا الإقرار استأذن العلاَّمةُ الكبير محمد أمين شيخو بالخروجِ والذهابِ إلى بيته...

ولم تمضِ سوى أيامٌ قليلةٌ بعد هذا اللقاء... حتى جاء زوجُ هذه المرأةِ الفرنسية ليُعلمَ السيِّدَ الشريف بأن زوجته الفرنسية ترجو اللقاءَ به مرةً ثانية لما وَجَدته فيه من صدقٍ وواقعيةٍ ومنطقيةِ الحديث... ويمكن أن تكونَ لديها رغبةٌ حقيقيةٌ في دخولِ الإسلام إن اجتمعَ بها ثانيةً.

فاعتذرَ العلاَّمةُ محمد أمين شيخو قائلاً: اجتماعي بها في المرةِ الأولى كان اضطرارياً كما كنتُ مضطراً للردِّ عليها فيما اتَّهمتْ به الإسلامَ من تعصُّب للحجاب وجمود.

أما الآن فأنا لا أذهبُ إليها بكلتا رجليَّ وبمحضِ إرادتي، ففي المرة الأولى رأيتها دونَ شهوةٍ ولكنْ في المرة الثانية وباختياري سوف أرغبُ وأشتهي فأنا بشرٌ يا أخي وبهذا أُهْلِكُ نفسي وهذا لا يجوز، إن كانت تريد أن تُسلِمَ فهي وشأنُها.

وبعد أقلِّ من شهرٍ عاد الدكتور وبرفقتهِ زوجتُه الفرنسية التي ارتدتْ لباساً طويلاً ساتراً لجسمها وأسدلت غطاءً على شعرها إلى بيت العلاَّمة محمد أمين شيخو الذي فتح لهما البابَ على غيرِ موعدٍ ورحَّبَ بهما أجملَ ترحابٍ أمامَ هذا الواقع، إذ لم

يسعه إلاَّ أن يأذنَ لهما بالدخولِ بهذا الزيِّ الشريف، ثم حدَّثته بأنها قد رأتْ في نومِها الرسولَ محمداً ﷺ بنورانيةٍ وبهاءٍ وجمال سَبَتْ عقلها وأذهلَتْها عن الوجود، فلقد عاشت في عوالمَ قدسيةٍ وغبطةٍ علوية حتى طلَّقت نفسُها دنياها وعافتْ شهواتِها فغدَتْ لا تبغي حِوَلاً عن حالِها السامي الرفيع.

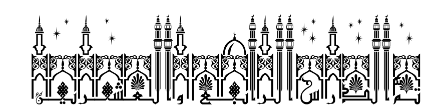
وأضافت: ومنذُ تلكَ المشاهدةِ العظيمة أصبحتُ أعيشُ حياةً مِلؤُها السعادةُ والسرور حيث انقلبَ ألمي وشقائي نعيماً لا يُضاهى وما زلتُ أعيشُ هذه الحالةَ حتى الآن، ولذلك قررتُ أن أُعلنَ إسلامي على يديك، وأَسلَمَتْ.

"نعم، لقدْ حدثتْ تلكَ القصةُ الواقعية في عهدِ سيادةِ فرنسا على سورية".

ثم أضاف: بعد إسلامِكِ بقيَ عليك أن تضَعيِ غطاءً على وجهِكِ لتستمري بحياتكِ القلبيةِ الراقية، إذ الفتنةُ لا نرضى بها.

فأجابت: لا أستطيع الآن أن أطبِّقَ هذا دفعةً واحدة لأنني كنتُ طيلة عُمُري معتادةً على كشفِ وجهي فهذا يصعبُ عليَّ الآن، فاصبر عليَّ برهةً قليلةً من الوقت وسوف أتِّمُ ذلك بإذن الله وحُبِّ رسولِه.

وحالت بين لقائهما أمورٌ سياسيةٌ عصفتْ بالشام، ولكنهُ اطمأنَّ لصدقِها بأنها بإذنِ الله على ما يُرام.



الأسئلة:

١) بيّن ما هي نتائج الاختلاط بين الرجال والنساء مع العلم أنهم شرفاء، على صعيد المجتمع؟.

٢) هل اجتمع العلاّمة محمّد أمين شيخو قدِّس سره بالمرأة الفرنسية حين طلبت اللقاء معه مرة ثانية؟ لِمَ؟.

٣) ما هو الحال الذي كانت تعيشه المرأة الفرنسية قبل ارتدائها الحجاب، وماذا أصبح عليه حالها بعد ارتدائه؟.

٤) لماذا طلّقت نفس المرأة الفرنسية الدنيا وعافتها؟.



فهرس



اللآلئ العصماء

تلألأ الكون مسروراً ببشرتها .. نور الهدى قد بدا
من شمس الحقائق فمحا عنّا العمى . فهل عجزت العلماء
أن تأتي بعطاء مماثل ؟! ..
عطاءٌ أشده وأدهش كل عالم وفيلسوف ، فازدان
الوجود جمالاً ، وطابت الطقوس الصمّ بالشهود
والشهد ، إذ كانت قبله أشباحاً بلا أرواح ،
وأبدان بلا غذاء ، فجاء بالروح والريحان وجنّات النعيم .
فيا أيها الناس قد جاءكم من الله نورٌ وشفاء .

ختام المسك المحمدي



www.rchss.com
www.amin-sheikho.com
www.sheikho-books.com



Research Council of
the Humane Scholar
Mohammad Emin Sheikho